عصور تاريخ الأدب العربيفي مصر

لقد خضعت مصر في حياتها السياسية منذ الفتح الإسلامي لها لمؤثرات غير تلك التي خضعت لها بقية الأمصار الأخرى التي فتحها العرب منذ ظهور الإسلام.

ومن ثم فقد نتج عن ذلك أن يكون لتاريخ اللغة العربية بها عصور تلائم هذه المؤثرات. فتختلف أحوالها من قوة وضعف حسب تلك المؤثرات السياسية واتجاه مجراها. فللسياسة ما لها من تأثير قوي في اللغة وآدابها.

وقد قسم المؤرخون عصور الأدب العربي في مصر إلى عدَّة عصور تختلف فيها أحوال مصر السياسية من حيث خضوعها لدولة الخلافة الإسلامية واستقلالها عنها. ليصبح زمام الأمور فيها بيد ولاتها أنفسهم دون الخضوع المطلق لأمر الخليفة، وأهم تلك العصور هي:

(1) عصـــر الـــولاة:

وهو العصر الأول من عصور اللغة والعلم بهذه البلاد، وتبدأ تلك الفترة من سنة20هـ وهي السنة التي فتحت فيها مصر على يد عمرو بن العاص. فأصبحت مصر من تلك الفترة تابعة للخلافة الإسلامية وحتى قيام الدولة الطولونية بمصر سنة 254هـ.

وقد كانت مصر في تلك الفترة تابعة لدولة الخلافة حيث كان يقوم بشئون الحكم فيها والٍ يعين تعييناً، ويتوقع العزل من منصبه في أي وقت لوشاية قد تصل إلى الخليفة أو لمحض رغبة في التغيير أو التبديل

للولاة.

والوالي في كل الأحوال لا يتصرف فيما يتولاه إلا بأمر الخليفة أو بكتاب يأتي منه.

ولا شك أن تلك الحال لا تمكن الوالي ولا تسمح له بالتصرف في أمر ولايته بما تمليه الحوادث وتقتضيه المناسبات. فهو مغلول اليد في تصريف الأموال التي بين يديه، بل أنه مطالب بإرسالها إلى الخليفة.

ولا شك أن مثل هذه الأمور لا تساعد على التقدم في مختلف شئون الحياة كما أنها لا تبعث همم الرجال في الأدب أو غيره من العلوم؛ بل إن كل نابغ في هذه العلوم قد يلجأ إلى عاصمة الخلافة لينال من جود الخليفة وسخائه.

وقد كانت الأحوال متقاربة الشبه بين حكم الولاة من بني أمية وبني العباس ومن ثم اقتضى ذلك أن تكون هذه المدة كلها في مصر عصراً واحداً وهو ما أطلق عليه عصر الولاة[1].

(2) عصر الدولة الطولونية:

وهو العصر الذي حكم فيه آل طولون واستمر من سنة 254هـ وحتى سنة 293هـ حيث نشأت حالة جديدة لا عهد لمصر بها. فاستقل بالأمر فيها عاهل نفض عن كاهله التحكم المطلق للخليفة وسما بمهمته إلى ما لم يسم إليه عاهل قبله بمصر. فقام بإنشاء ثاني مسجد بها وبنى القصور لنفسه واختط لجنده وأتباعه مدينة عظيمة مساحتها

---

(1) راجع الأدب العربي في مصر تأليف محمود مصطفى ص17 : 18، المؤسسة المصرية العامة للنشر 1387هـ - 1967م0

ميل في ميل[1].

ثم كان الأمر في مصر بعده لأبنائه وورثته فيعمل الابن مثل ما عمل أبيه وفي عهد هذه الدولة أصبح لمصر شأن غير شأنها السابق فازدادت عمارتها وجبايتها فأرضوا الخليفة ببعض المال وانطلقت أيديهم في البعض الآخر، مما جعل دارهم منافسة لدار الخليفة في كل مظاهر العظمة والأبهة.

ومن ثم أصبح في تلك البلاد شأن جديد استلزم أن ينشأ فيها لتاريخ اللغة عصر جديد شجعت فيه الآداب وارتفع للشعر من أهل البلاد صوت صار فيها للكتابة شأن حتى حسدت بغداد مصر على بعض كتابها.

ففي عصر أحمد بن طولون استقلت مصر وأصبح لها شأن مهم في القرن الثالث للهجرة وبدأ فيها عصر جديد في تاريخ النثر الأدبي وذلك لسبب بسيط وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ في دمشق وبغداد حول دواوين الرسائل[2].

وقد أشار صاحب صبح الأعشى إلى ذلك بقوله: "لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في مدة نواب الخلفاء صَرْفُ عناية تقاصُراً عن التشبه بديوان الخلافة إذا كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان... ولما أخذ بن طولون في تدبير الملك وإقامة السلطة بالديار

(1) النجوم الزاهرة ج14/3.
(2) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور/ شوقي ضيف ص346، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة.

المصرية. وشمخ بها سلطانه وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء "ديوان الرسائل لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عبد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره"[1].

وهذا هو ما عرف بعصر الدولة الطولونية التي أسسها أحمد بن طولون وأبنائه ودامت ما يقرب من أربعين عاماً.

(3) عصر الدولة الإخشيدية:

في الفترة من سنة 293هـ وحتى سنة 324هـ عاد عهد الولاة مرة ثانية فيقف تقدم البلاد ويتبعه وقوف العلوم والآداب، ولكن سرعان ما تقوم دولة تشبه الدولة الطولونية في الحكم، ولكنها لا تكون لها سيطرتها ولا أهميتها في التجديد والإحداث ولا مقدار بذلها في العلم والأدب، ولكنها على كل حال دولة لها شأنها حيث حضر في أيامها إلى مصر أكبر شاعر في عصره وهو أبو الطيب المتنبي طامعاً في كرم وسخاء من يحكم مصر في ذلك الوقت، مما ساعد على رواج الأدب وسوقه في تلك الفترة فكان لمجالسه انتعاش وتميزت أيام هذه الدولة عما قبلها وما بعدها.

ومن ثم كانت عصراً ثالثاً سمي بعصر الدولة الإخشيدية[2]. ووجدنا من شعرائهم في ذلك العصر "شاعرهم القَلَة الملقب بقاضي القصر واشتهر في هذا العصر أيضاً" أبو هريرة أحمد بن أبي عصام وفيه يقول صاحب المغُرب "كان من شعراء الإخشيد المصريين من أصحاب

---

(1) صبح الأعشى للقلقشندي ج28/11، طبع دار الكتب.
(2) الأدب العربي في مصر تأليف مصطفى محمود ص18 : 19.

النوادر والمجون والإدمان على شرب الخمر"[1].

(4) عصر الدولة الفاطمية:

وعقب انتهاء الدولة الإخشيدية حكمت مصر دولة قوية عرفت بجيوشها الجرارة وغناها الواسع فأضافت مصر إلى رقعتها فعظمت بها سطوتها، وهي الدولة الفاطمية التي كانت منافسة للخلافة العباسية في بغداد بل عارضها معارضة شديدة وخطب لها الخطباء على المنابر.

وقد اتخذ الفاطميون من القاهرة عاصمة لهم وأقاموا فيها دولة عظيمة أشبه ما تكون بإمبراطورية ضخمة. إذ كان سلطانهم يمتد من شواطئ أفريقية الشمالية إلى نهر الفرات وبذلك أعادوا لمصر مجدها القديم في عصر الفراعنة[2].

وقد كان جديراً بأن يكون عصراً جديداً للأدب واللغة دام قرابة قرنين من الزمان من سنة 358هـ وحتى سنة 567هـ.

(5) عصر الدولة الأيوبية:

قامت تلك الدولة بعد انتهاء دولة الفاطميين وكان لها شأنها في نشر العدالة بين الناس وحماية البلاد من العدوان وكذلك خدمتها للدين ورعايتها لأهله فنالت حب الناس وتقديرهم.

وقد كانت الدولة الأيوبية دولة سنية، لذلك أخذت تناهض التشيع الفاطمي ومظاهره في مصر، واتخذت لذلك طريقة منتظمة هي إنشاء المدارس والمعاهد السنية وقد بدأ صلاح الدين هذه الحركة فأنشأ

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور/ شوقي ضيف ص465، دار المعارف.
(2) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور/ شوقي ضيف ص468 : 469.

طائفة من المدارس كي يدعم الدعوة السنية[1].

ويدلنا على ذلك ما ذكره ابن خلكان حيث يقول: "لما ملك صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمل في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي- رضي الله عنه- وبنى بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي- رضي الله عنهما- وجعل عليها وقفاً كبيراً "[2].

وقد ظهرت للأدب في عصر الدولة الأيوبية الكثير من المزايا التي جعلت منه عصراً مستقلاً بذاته وجديراً بأن يطلق عليه عصر الدولة الأيوبية وقد دام هذا العصر من سنة567هـ وحتى سنة 648هـ.

(6) عصر دولة المماليك:

وهو العصر التالي للدولة الأيوبية حيث حكم البلاد فيه أولئك المماليك الذين كانوا لا يحسنون لغة أهل هذه البلاد، ولكنهم مع ذلك اخلصوا لها غاية الإخلاص، وإن كانوا قد قصروا في حق الآداب فلم يشجعوها إلا أنه كانت لهم نهضة بالفن والعمارة، وما تنطوي عليه من زخارف وجمال، وكما نهضوا بالعمارة نهضوا بالعلم والشعر أيضاً.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "إذا تركنا العصر الأيوبي إلى عصر المماليك وجدنا مصر تستمد كثيراً من بهجتها ومرحها في العصر الفاطمي، فقد بادلها كثير من مكانتها القديمة في الشرق وخاصة بعد

---

(1) المرجع السابق ص 365.
(2) وفيات الاعيان لابن خلكان ج402/2.

غارات التتار على العالم الإسلامي وانتقال الخليفة العباس من بغداد إلى القاهرة، فقد أقبل معه العلماء والأدباء إليها حيث الظل الهنيء والعيش الرغيد وكانت مصر في هذا العصر أهم بلد في العالم الإسلامي"[1].

وقد دام هذا العصر من سنة 648هـ إلى سنة 923هـ وقد عرفت تلك الفترة بعصر دولة المماليك أو العصر المملوكي.

(7) عصر العثمانيين:

كان من سوء حظ مصر أن اشتبك المماليك في حروب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحاً سنة 923هـ. وبذلك أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ولم يعد لها نفوذ في سوريا وبلاد العرب. بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية، واستمرت كذلك حتى غزاها نابليون عام 1798 للميلاد[2].

ومن ثم عادت مصر إلى شأنها الأول بعد أن جردها العثمانيون من خبرة رجالها في العلم والصناعة وولوا عليها من أهملوا لغتها فلم يحاولوا تعلمها فبدت الهوة بينهم وبين عامة الشعب المصري.

وهذا هو العصر السابع للأدب العربي في مصر والذي دام من سنة 923هـ وحتى سنة 1220هـ وهو ما أطلق عليه عصر الحكم العثماني أو العصر العثماني

(8) العصر الحديث:

ويبدأ بخروج الحملة الفرنسية من مصر وتولية محمد على حكم

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور / شوقي ضيف ص 50.
(2) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور / شوقي ضيف ص 386.

مصر، ويستمر حتى الآن، وسوف نستعرض في الصفحات التالية أهم مظاهر النهضة الأدبية في مصر على مر تلك العصور مشيرين للكثير من شعرائها وكتابها النابهين، وكذلك من قدم إليها من الشعراء من غير أبنائها، متعرضين لبعض الشعراء بشيء من التفصيل عن شعرهم وبعض أغراضهم الشعرية.

❖❖❖

أهمية مصر

الموقع:

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم "البحر المتوسط" مطلة عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة في العالم القديم، بل استطاعت أن تلعب أقدم دور في تأسيس الحضارة الإنسانية وهو دور عظيم لا تزال أهراماته وصروح آثاره شاخصة أمام أعيننا تعبر أدق تعبير عما بلغته مصر من مدنية وحضارة وقد أخذت تنشر تلك المدنية في الأمم المجاورة متخذة ضمها إلى مملكاتها سببها إلى ذلك.

فضمت في أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور، وتمضي أحقاب متطاولة، ولمصر المكانة الأولى بين الأمم القديمة.

فمصر كما وصفها هيرودوت- هبة النيل- ، وقد مثلت أقدم دور في قصة المدنية الإنسانية فعنها تلقت الأمم القديمة من فينيقيين وبابليين ويونانيين هذه القصة في أروع صورة لها، ثم حاولت أن تحاكيها، وأن

تحتذي على مثالها وقد ذكرها القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً. ووصفها بأنها "جنات وعيون وزروع ومقام كريم" وحقاً كانت الجنات والعيون والزروع تمتد على ضفتي النيل من أسوان إلى شواطئ البحر وراع جمالها العرب حين فتحوها فلقبوها فردوس الدنيا[1].

وقد لا يختلف موقع مصر بحدوده الطبيعية منذ فجر تاريخها إلى اليوم ومصر الحديثة تمتد من خط 35 إلى 25 طولاً، وخط 31 إلى 22 عرضاً وتبلغ مساحتها مليون كيلو متر مربع وإن كان الجانب العامر بالحياة من هذه المساحة قليل جداً إذا ما قورن بالمساحة الكلية لمصر.

ولقد رسم هذا الموقع صورة البيئة الطبيعية لشخصية مصر إذا أخذت من أثيوبيا الجبلية الوعرة بيئة سهلية منبسطة فأفضل ما يكون الاستواء، واستمدت منها تربة رسوبية بركانية دون أن تعاني من البركنة والزلزلة، ثم أخذت مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الزائدة ومناخها القاسي[2].

ودور الموقع المصري في امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة مشهود به تاريخ مصر اليونانية الذي جمع بين حضارات الهند والصين والشرق الأدنى واليونان. حيث سهل ذلك الموقع عملية احتكاك هذه الحضارات[3].

وتوسط موقع مصر الجغرافي هذا له دوره في تكوين سمات الشخصية المصرية الخلقية والنفسية التي انعكست على الحضارة والآداب فقد سهل موقعها- تلاقي الحضارات وامتزاجها- ونتج عن

---

(1) حسن المحاضرة للسيوطي ج2/1 : 8 طبع مطبعة الموسوعات بمصر.0
(2) شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان للدكتور/ جمال حمدان ص454.
(3) الحركة الفكرية في مصر. للدكتور/ عبد اللطيف حمزة ص7.

ذلك تكوين الذوق المصري الذي قام بعملية سبر غور الألوان الثقافية حيث أخذ يتذوقها ويهضمها ثم اهتدى إلى تمييز ما يلائمه منها.

وهذا ما فعلته "هليوبوليس" في مصر الفرعونية القديمة، ثم ما فعلته "الإسكندرية" في العهدين الإغريقي والروماني. ثم ما فعلته "القاهرة" في العصر الإسلامي.

وتأثير الموقع في تكوين شخصية مصر الأدبية متعدد الجوانب. فقد لعب دور الوسيط في تجميع الحضارات وأثر بطريق مباشر حين أصبح هذا الموقع حجر الزاوية في النشاط التجاري، الذي بلغ قمته في العصور الوسطى ولا يخفى دور هذا النشاط في نمو الاقتصاد ووفرة الثروات التي تنعكس على كل الفنون ومن أهمها الأدب.

وفي تاريخ أدبنا العربي صور صادقة تروي آيات ازدهاره خلال فترات التقدم الاقتصادي كما حدث في العصر العباسي الأول في بغداد والعصرين الفاطمي والأيوبي في مصر[1].

ويرى بعض الباحثين أن هضاب مصر كانت خضراء ممطرة في الأزمان السحيقة وأن مجرى النيل كانت تحفة عدة مستنقعات ما تعذر على الإنسان أن يقيم حياته فيها، فعاش على الرعي والصيد بين جنبات الهضاب الخضر، ثم حدث جفاف وتحجرت الهضاب وغادرها سكانها واتجهوا إلى المستنقعات في أسفل الوادي وحولوها بجهود جبارة إلى حقول مزروعة تشقها مجاري الري والصرف، وبدأ الإنسان المصري يكون

(1) الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي للدكتور/ أحمد سيد محمد ص 16 : 17 ، دار المعارف.

سطح مصر.

"فمصر هبة المصريين"، وهذا ما أكد صفة الشخصية، والرسوخ والإنفراد بالذات وأثره في تكوين الشخصية المصرية. حيث أثارت بعض المصادر إلى أنه كانت المرتفعات المحيطة بمصر، ثم جفت فتحولت إلى صحراء ولا تزال شواهد سكانها القديمة ماثلة فيما عثر عليه من العديد من الأدوات البدائية التي خلفها الإنسان الأول في مواضع متفرقة على سطحها[1].

وقد شكل السطح جسم مصر، كما أثر في تكوين روحها وعقلها فمصر التي تترامى نحو1200 كم بين الشمال والجنوب تبدو كالكأس الطويلة أو الزهرة، ساقها الصعيد وزهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم، ويشبهها بعض الباحثين بالنخلة صعيدها باسق ودلتاها كالمظلة المنفرجة في حين أن الفيوم عرجونها.

وقد حدد السطح بهذه الصورة بمط الحياة السياسية والإدارية في مصر. فمصر مسافة لا مساحة تمثل مشكلة تنظيم إداري داخلي دون أن تتحول إلى مشكلة سياسية ومسألة وجود وكيان[2].

وقديماً وصف "أبو الصلت" في رسالته المصرية وادي النيل بقوله: "ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما في الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم والآخر في الضفة الغربية منه والنيل بينهما. وهما أجردان غير شامخين، يتقاربان جداً في وضعهما من لدن أسوان إلى

---

(1) راجع تفصيل هذه الفكرة في: تاريخ الشرق الأدنى القديم للدكتور/ عبد العزيز صالح ج16/1، وكذلك: تكوين مصر للدكتور/ شفيق غبريال ج3 القاهرة 1957م0

(2) شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان للدكتور/ جمال حمدان ص71.

أن ينتهيا إلى الفسطاط.

ثم تتسع مسافة ما بينهما وتتفرج قليلاً فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية[1].

ويتميز سطح مصر بالتجانس، سواء في مسيرة الوادي أو التلال المحيطة به أو تكوين تربته، فكل جوانب السطح ومظاهره تتدرج على المحور الطولي من المنبع إلى المصب، فحواف هضبتي الوادي تخضع لظاهرة التدرج تباعدا أو ارتفاعاً، فهما تزدادان تباعداً كلما اتجهنا شمالاً كما تقلان ارتفاعاً، ومع انفراج الدلتا تزداد الحواف التلية تواضعاً بمقدار ما تزداد تباعداً. وتزداد الرتبة سمكاً كلما اتجهنا شمالاً فمتوسط سمكها عند أسوان وقتاً حوالي 6,7 أمتار.

وأما في جنوب الدلتا فتبلغ متوسط السمك حوالي 8,5 أمتار، ولا يعرف السطح تغيراً مفاجئا، وإن كان ثمة تغير فهو خاضع لظاهرة التدرج، ولهذا فإنه لا يبدو واضحا إلا في الطرفين في براري الدلتا والنوبة العليا، ومع ذلك فهو اختلاف إقليمي ثانوي الدرجة[2].

وقد أثار هذا التجانس انتباه العرب فوصفوا مصر بقولهم:"هي ما بين أربع صفات، فضية بيضاء، أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء أو ذهبية صفراء، وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصب عنها فتصير مسكة سواء، ثم تزرع فتصير زبرجدة خضراء،

---

(1) نوادر المخطوطات تحقيق/ عبد السلام هارون، "الرسالة المصرية"، ص16، القاهرة، مكتبة الحلبي سنة 1973م0

(2) شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان للدكتور/ جمال حمدان ص17 .

ثم تستحصد فتصير ذهبية صفراء[1].

وحيث استمد وادي مصر الخصيب هيئته من نهر النيل فمن طينته الرسوبية تشكل الوادي ومن مائه وتربته نشأت الزراعة وقامت أعمال السكان وتشكلت علاقاتهم. وقد أحس المصريون القدماء بقيمة النيل في حياتهم وشغل جانباً كبيراً في التراث العربي، وأما عن دوره في الأدب المصري قديمه وحديثه ووسيطه فكان ولا يزال موضوع دراسة ومصدر إلهام.

❖❖❖

علاقة العرب بمصر

بدأت علاقة العرب بالمصريين قبل ظهور الإسلام وكان ذلك عن التزاور أو الاستيطان أما طريق التزاور فقد سلكه التجار العرب الذين جذبهم ثراء مصر. ووفرة خيراتها وتوسط موقعها.

وكان من بين رواد مصر في العصر الجاهلي عمرو بن العاص وعثمان بن عفان والمغيرة بن سمية وغيرهم.

وسوف نقف مع أحد هؤلاء الذين قدموا إلى مصر في الجاهلية وكان فتح مصر على يديه في الإسلام وهو: عمرو بن العاص.

- عمرو بن العاص ودخوله مصر في الجاهلية:

جاء في كتاب المغرب في حلى المغرب:"وكان عمرو بن العاص قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها ورأي ما فيها ، وكان سبب دخول عمرو إياها أنه قدم إلى بيت المقدس للتجارة في نفر من قريش فإذا هم

(1) شخصية مصر للدكتور/ جمال حمدان ، ص17.

بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس، فخرج في بعض جبالها يسيح، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكان رعيه الإبل نوباً بينهم، فبينما عمرو يرعى الإبل إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فوقف على عمرو فاستسقاه، فسقاه عمرو من قربة له، فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه، وكانت إلى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهمه، فقتلها. فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة، قد نجاه الله منها، فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره عمرو أنه رماها، فقتلها، فأقبل إلى عمرو، فقبل رأسه، وقال له: قد أحياني الله بك مرتين: مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا، فقال له الشماس: كم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيراً، فإني لا أملك إلا بعيرين، فأملي أن أصيب بعيراً آخر، فتكون ثلاثة أبعرة، فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم، كم هي؟ قال: مائة من الإبل، قال له الشماس: لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار، فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد، وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس، وأسيح في هذه البلاد شهراً، جعلت ذلك نذراً على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادي فهل لك أن تتبعني إلى بلادي، ولك عهد الله وميثاقه، أن أعطيك ديتين، لأن الله- عز وجل- أحياني بك مرتين، فقال له عمرو: وأين بلادك؟ قال: مصر في مدينة يقال لها

الإسكندرية، فقال له عمرو: لا أعرفها ولم أدخلها قط، فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها، فقال عمرو: وتفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق؟ فقال له الشماس: نعم له بالله عليّ العهد والميثاق أن أفي لك وأردك إلى أصحابك، فقال عمرو: وكم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهراً، تنطلق معي ذاهباً عشراً، وتقيم عندنا عشراً، وترجع في عشر، ولك عليّ أن أحفظك ذاهباً، وأن أبعث معك بمن يحفظك راجعاً، فقال له عمرو: انظرني حتى أشاور في ذلك أصحابي، فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم: تقيمون عليّ حتى أرجع إليكم، ولكم عليّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك، على أن يصحبني رجل منكم أنس به فقالوا له: نعم. وبعثوا معه رجلاً منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية فرأي عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه، وقال: ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال، ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال، فازداد عجباً، ووافق ذلك عيداً في الإسكندرية عظيماً، يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم أكرة من ذهب مكللة، يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضي منهم أنها من وقعت الأكرة في كمه، واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها

رجل منهم، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو، فعجبوا من ذلك، وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى عمرو هذا يحكم مصر؟ وبعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً، وزودهما وأكرمهما، حتى رجع وصاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأي منها ما علم أنها به أفضل البلاد وأكثرها مالاً، فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفاً، قال عمرو: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته[1].

- فتحه لمصر في الإسلام:

وتدور عجلة الزمن دورة فإذا بعمرو بن العاص يأتي على رأس جيش كبير عام 640م/20هـ. متخذاً طريقة تلك الدروب والمسالك التي كانت تشق طور سيناء إلى مصر. ويتعقب الروم في غير موقع ويستطيع بما أوتي من قوة أن يطردهم منها وبذلك تدخل مصر في عصر جديد وهو عصر الإسلام[2].

قال أصحاب الأخبار: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد بعث عمرو بن العاص إلى فلسطين بعد افتتاح دمشق، فلما أفضت الخلافة إلي عمر رضي الله عنه كتب إلى عمرو يأمره أن يمضى إلى مصر غازياً فكتب إليه عمرو يخبره بقلة عدد من معه من المسلمين، فأمده عمر بالزبير بن العوام وبجماعة من المهاجرين والأنصار، فتقوى بهم، وتوجه مسرعاً، فبعد أن أنفذ عمر رضي الله عنه من أنفذ من المسلمين مدداً لعمرو، اجتمع أعلام الصحابة، فدخلوا عليه،

---

(1) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي ص18/1 : 19، الهيئة العامة لقصور الثقافة0

(2) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص34.

وقالوا: إنك غررت بالمسلمين! إن أهل مصر عدد لا يحصى، وبها ملوك، كثيرة أموالهم ورجالهم، فلما سمع ذلك دعا علياً ﷺ واستشاره، فأشار عليه أن يوجه إلى عمرو رسولاً على بريد، فإن ألفاه وقد دخل حيز من مصر فلا يرجع، فإن ذلك وهن على المسلمين، وإن أدركه قبل أن يدخل حيزها فليرجع. فأدركه الرسول ولم يدخل حيز مصر، فدفع إليه الكتاب، وقال له: أقرأه، ونفذ ما فيه، فقال: إذا نزلت قرأته، ومضى مجداً في السير وأتعب الناس إلى أن دخل عمل مصر، فقرأ الكتاب، وجمع الناس، فحضر الزبير وأشراف الناس وقرأ عليهم الكتاب، وقال: قد دخلت مصر ولست براجع، فمضى لوجهه وأيده الله بنصره، ففتحها، وذلك في سنة عشرين. وبعث بخبرها معاوية بن حُدَيج الكندي، وكان عند وصوله إلى المدينة، ووصل نهاراً، أناخ بباب عمر وانتظره إلى أن خرج، فلما رآه عرفه، قال: أنت الذي أناخ ببابي أو لا؟ قال: نعم، قال: فما منعك أن تدعوني؟ قال: خشيت أن تكون قد نمت وقت القائلة، فقال عمر: كيف أنام ولي عسكر في سبيل الله! لو فعلت لكنت أجرأ البرية على الله تعالى، ثم قال ما وراءك؟ فقال: فُتحت مصر، فحمد الله تعالى ودعا دعاء طويلاً، وسجد شكراً لله، ثم ناوله الكتاب، فلما استوفى قراءته قال: لا تخربوها، ولا تفسدوها، ولا تعرضوا لأهل قراها ومنازلها. فانصرف معاوية إلى عمرو ومن معه من المسلمين فأخبرهم، فأخذوا منها الذهب والفضة والجوهر وتركوها بجميع ما فيها للمسلمين. ولم يزل أميراً على مصر إلى أن قتل عمر ﷺ. فلما ولي عثمان ﷺ عزل عمراً وولى مصر عبد الله بن سعد بن أبي

السرح العامري، وكان أخا عثمان من الرضاعة[1].

القبائل العربية التي نزلت مصر

ذكرت في الحديث عن علاقة العرب بمصر قبل ظهور الإسلام كيف أن بعض العرب قدموا إلى مصر في الجاهلية وكان على رأس هؤلاء عمرو بن العاص ﷺ.

ثم كان فتح مصر في الإسلام على يديه وأصبح أول والٍ من المسلمين يتولى أمر مصر في الإسلام.

وفي الصفحات التالية نشير إلى القبائل العربية ومن قبلها الأفراد الذين جاءوا مصر. منذ بُعث النبي ﷺ إلى أن استقر حال المسلمين في مصر، وأصبح لمصر مكانتها وأهميتها بين الأمصار الإسلامية، فاتصال مصر ببلاد العرب قبل الإسلام لا ينكره أحد.

"إذ نقل العرب غلات بلادهم إلى البلاد الأخرى. وكانت القوافل أول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في آيلة وهي المعروفة اليوم بالعقبة"[2].

ولما بُعث النبيﷺ، أرسل من قبله حاطب بن أبي لقحة رسولاً إلى المقوقس عظيم القبط في مصر. يدعوه إلى الإسلام فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبيﷺ فتقبلها النبي شاكراً وأوصى بأهل مصر خيراً، فقد روى عنهﷺ أنه قال: "استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً"..

---

(1) كتاب فتوح مصر الذي مر ذكره وسنعتمد هنا في المقابلة على طبعة توري ص53، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي ص 1/ 16 : 17.
(2) فجر الإسلام لأحمد أمين ص1، الطبعة الأولى.

قال ابن كثير: "والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، أمه هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية"[1].

وكان بين القبط من صحب رسول اللهﷺ. كجبر بن عبد الله القبطي، وروى السيوطى عن سعيد ابن عفير أنه قال: "والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبيﷺ"[2].

وقد ورد ذكر مصر في القرآن الكريم كثيراً، فلا غرو إذن أن نجد العرب يعرفون الكثير عن مصر قبل الإسلام.

وعندما جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه العرب من القبائل المختلفة الذين يقال أن أكثرهم كان من لخم. ويقال كذلك لأن عددهم لم يزد على أربعة آلاف نفس. ثم تبعه الزبير بن العوام بمدد قدر باثني عشر ألفاً، فلما تم لهم فتح مصر. وبني مسجد الفسطاط، أمر عمرو جنوده أن يخططوا له المسجد الجامع كل حسب قبيلته. فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة ولخم وغسان وغافق[3].

وكان مع عمرو جماعة العتقاء وهم جماع من القبائل عرفوا بالصعاليك كانوا يقطعون الطريق أمام النبيﷺ فبحث في طلبهم وآتى بهم أسرى، فأعتقهم وكان بينهم كثير من طوائف الأزد.[4]

كما كان في جيش الفتح جماعة من الشام عرفوا في مصر

---

(1) النجوم الزاهرة ص29/1 طبعة دار الكتب المصرية.
(2) حسن المحاضرة للسيوطي ص109/1.
(3) خطط المقريزي ص76/2 وما بعدها.
(4) وفيات الأعيان لابن خلكان ص238/1.

بالحمراء لنزول الروم بينهم، ولكنهم عرب من "قضاعة"، وفهم وعدوان وبعض الأزد وكانوا يسكنون قيسارية وما حولها ورغبوا في الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر وسموا بالحمراء لأن العرب اعتادوا أن يسموا الموالي من الروم بهذا الاسم[1]،

واشترك في الفتح أيضاً عدد من قبائل مختلفة من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس عرفوا في مصر باسم أهل الراية. ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان[2].

وبعد أن تم فتح مصر نجد الخليفة عمر بن الخطاب يكتب إلى عامل الشام أن يسير ثلث من بالشام من قضاعة إلى مصر. فنظر الوالي فإذا "بلى" تعادل ثلث قضاعة فسيرهم إليها فانتشروا في البلاد سيما حول إخميم وما يليها وتفرقت بلى بأرض مصر ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاد الخراب إلى عيذاب "القصير"[3].

وأخذ العرب يفدون على مصر أفواجاً حتى غصت بهم البلاد وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل. فلما كثرت الأمداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد ذلك وكثر الناس وسع كل قوم لبني أبيهم حتى كثر البنيان والتأم[4].

ولما وُلّيَ معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة، غرب

---

(1) خطط المقريزي ص79/2.
(2) المصدر السابق ص76/2.
(3) البيان والأعراب للمقريزي ص27:28.
(4) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص128.

جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية[1].

كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفى عامل الإسكندرية " إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة فكان في الإسكندرية سبعة وعشرون ألفاً"[2]. كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفاً[3].

وفي إمارة الوليد بن رفاعة على مصر عام تسع ومائة نزل بنو سليم "وهم من قيس" ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والى الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك- وكان عدد بني سليم ثلاثة آلاف رجل فأنزلهم الحوف الشرقي وأمدهم بالزرع فاشتروا إبلاً وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا. وسكن بنو عقبة وهم من جذام أيضاً ما بين آيلة وحوف مصر[4].

وبصعيد مصر أولاد الكنز، أصلهم من ربيعة وكانوا يتزعمون اليمامة فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل أعوام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير. وانتشروا في البلاد فنزل طائفة منهم بأعمال الصعيد[5]. ويقول المقريزي: وجهينة أكثر عرب مصر[6]. وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها ووقع بينهم وبين بطون بلى واقع أدى

---

(1) خطط المقريزى ص78/2.
(2) حسن المحاضرة للسيوطي ص98/1.
(3) خطط المقريزى ص151/1.
(4) البيان والأعراب للمقريزى ص31.
(5) البيان والأعراب للمقريزى ص48.
(6) المصدر السابق، ص38.

إلى دوام الفتنة بينهما. وفي الفيوم نزل بنو كلاب[1].

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقليوب وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش[2]، وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر[3].

تلك لمحة سريعة عن القبائل العربية التي قدمت إلى مصر منذ الفتح الإسلامي لها واستقرت بها. ومن ثم نستطيع أن نقول أن أكثر عرب مصر من اليمنيين وقد اختطوا دورهم في الفسطاط وغيرها. ورابط بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي يخشى عليها من مهاجمة الأعداء.

❖❖❖

علاقة الحكام (الولاة) بالمصريين

لقد أحس أقباط مصر منذ الأيام الأولى لفتحها وتولية العرب الحكم فيها بالفارق الكبير بين العرب وغيرهم من الشعوب، بل تولد هذا الإحساس في نفوس المصريين قبل الفتح العربي، ومهد له وأعان على تثبيت أقدامه، وقد قرب المصريين من العرب ما وجدوه في الإسلام من نصوص تهتم بهم، وتبرز شخصيتهم وتوصي بهم خيراً.

حقاً لقد فرق الإسلام نوعاً من التفرقة بين المسلمين والذميين في بعض المظاهر الاجتماعية كالزي والركوب، لكن هذه المظاهر

---

(1) المصدر نفسه، ص36.
(2) المصدر نفسه، ص62.
(3) خطط المقريزي، ص365/1.

شكلية وهينة جداً إذا ما قورنت بمواقف الرومان- مثلاً- من المصريين فضلاً عن أن حكام مصر المسلمين لم يطبقوها إلا نادراً.

وقد دافع الحكام العرب عن حرية أقباط مصر، ووقفوا لهم درعاً واقياً ضد ثورات بعض أفراد القبائل العربية بمصر خاصة في المرحلة الأولى من العلاقة بين الجنسين، من ذلك أن بعض المسلمين هدموا كنيسة أنشأها النصارى بمدينة "تنيس" سنة 300هـ، فلجأوا إلى السلطان فأعانهم على إعادة بنائها، واستخدم الإخشيد جنوده في تمكين النصارى من إصلاح كنيسة أبي شنودة في مصر.

وكان بعض قضاة مصر يسمح للنصارى بدخول المسجد ويجلس للقضاء بينهم[1].

ولم يمض وقت طويل على الحكم العربي بمصر حتى ذابت فكرة العصبية العربية في الحكم الإسلامي. وتولى أمر مصر حكام ليسوا من ذوي أصول عربية، ولكن مصر تقبلتهم بقبول حسن وأضفت عليهم من طابعها الأصيل، فلم يجد حكامها المسلمون غضاضة من مشاركة القبط أعيادهم الدينية، وليس بدعاً أن نرى المصريين يحتفلون بعدة أعياد جمعوا بينها في مزيج مصري، منها ما كان من وحي الطبيعة المصرية ومنها ما هو موروث من الديانات القديمة أو الشرائع السماوية[2].

وأسند حكام مصر خلا ل حكم الدولتين الفاطمية والأيوبية مناصب عالية إلى كثير من النصارى، وكانت العلاقة بين كبار

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة د/ عبد الهادي أبو ريدة ج1 ص74 وما بعدها القاهرة 1957م0

(2) مصر في عصر الولاة. د/ سيدة الكاشف ص 11.

النصارى وحكام مصر علاقة تعاون واحترام في كثير من الفترات.

يقول ناصر خسرو:

"رأيت في مدينة مصر نصرانياً من سراتها قيل إن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد، وحدث في سنة ما أن كان النيل ناقصاً وكانت الغلة غزيرة، فأرسل الوزير إلى هذا النصراني، وقال: ليست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية فأعط ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً. قال النصراني: أسعد الله السلطان والوزير، إن لدي من الغلة ما يمكنني من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات.. فأي سلام كانت فيه الرعية، رأي عدل للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر"[1].

وكانت الدواوين في البلاد التي فتحها العرب تسجل بلغاتها الأصلية، وقد أبقى "عمر بن الخطاب" على النظام الإداري في البلاد المفتوحة، ومن بينها الدواوين (السجلات) تكتب باللغة اليونانية في الشام، وبالفارسية في فارس والعراق، وبالقبطية في مصر[2].

واستمرت الدواوين تعمل بلغاتها المختلفة حتى كان عصر "عبدالملك بن مروان" الخليفة الأموي، ونقل الديوان من الفارسية إلى العربية[3].

وكان "الحجاج بن يوسف الثقفي" صاحب اليد الطولي في الأخذ

---

(1) سفر نامة لناصر خسرو، المترجم إلى العربية ص 63، ترجمة د/ مصطفى الخشاب.
(2) التاريخ السياسي د/ عبد المنعم ماجد ص 237.
(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج522/1.

بهذا التعريب في بلاد العراق.

أما في مصر فقد بدئ في تعريب دواوينها في خلافة " الوليد بن عبد الملك " وذلك سنة 87هـ، 706م.

من أهم العوامل التي ساعدت على اندفاع العرب إلى الالتحام الكامل بالمصريين قانون أصدره الخليفة العباسي "المعتصم" يقضي بإسقاط العرب من ديوان الجند[1]. وقصة هذا الديوان تبدأ منذ عصر الخليفة "عمر ابن الخطاب"

فمن المعروف أن رسول الله ﷺ لم يعتمد على جيوش متفرقة للقتال متقطعة له حتى ولى الخلافة عمر بن الخطاب، واتسعت الإمبراطورية الإسلامية- ولم يعد نصاب الجيش من الغنيمة كافياً للإنفاق على المقاتلة فرتب "عمر" ديوان الجند، ونظم للمقاتلة من الحجاز أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة (روادف) مرتبات ثابتة تسمى العطاء، يتسلمونها وعائلاتهم من الصبيان والنساء.

وكان العطاء بقدر قرابتهم للنبيﷺ وشهودهم بدراً، أو المواقع المشهورة مثل القادسية واليرموك. وكانت أسماؤهم مسجلة في ديوان يسمى ديوان الجند، وقد استمر هذا العطاء يدفع للعرب حتى خلافة المعتصم العباسي (218، 227هـ)[2] الذي استكثر من جند الأتراك وأثبتهم في الديوان وأمر واليه في مصر "كعب بن نصر الصفدي" بإسقاط العرب من ديوان مصر وقطع العطاء عنهم.

---

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس لابن عذاري المراكشي ج2، ص 4.، تحقيق ومراجعة ليدي بروفن سالي: بيروت - 1967م0

(2) التاريخ السياسي: د/ عبد المنعم ماجد ص 232، 233.

وترتب على هذه الحادثة أن انصرفت جماعات من قبيلة لخم وجذام ومن على شاكلتهم، إلى السعي وراء الرزق من موارد أخرى، غير الجهاد والحرب، وتفرقوا في الجهات المصرية لممارسة الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو غير ذلك من المهن التي كانت إلى ذلك الحين وقفاً على القبط[1].

❖❖❖

أثر التعريب في مسيرة الأدب

مصر تعد واحدة من الأمم القليلة التي تخلت نهائياً عن لغاتها القومية قبل الإسلام لتحتضن اللغة العربية. لا باعتبارها لغة الفاتح المنتصر، فلقد غزاها الرومان من قبل ولم تصبح اللغة اللاتينية لغة المصريين ولا باعتبارها لغة الأدب والشعر والحكمة والأمثال فالشخصية المصرية لا نجذبها هذه الأمور ولم تبدع إبداعها في مجالات أخرى. وإنما أقبلت مصر على اللغة العربية إقبالها على الإسلام ومحاولة فهمه ثم التعمق فيه تعمقاً يلائم طبيعتها.

ولقد سار التعريب في مصر وئيد الخطى ولكنه كان راسخاً رسوخ الطود ينتقل من أطراف الصحاري ليتغلغل في أعماق المدن والقرى، عازماً على ألا يبقى معه غريم أو منافس حتى إذا ما استوى على عودة وتمكنت جذوره من الارتواء ذاتياً من عروق النيل الممتدة في باطن أرض مصر أينعت ثماراً مختلفة الألوان والمذاق.

(1) مصر في عصر الولاة، د/ سيد الكاشف ص 5.

ومصر في موقعها من التعريب تختلف اختلافاً جوهرياً عن غيرها من الأمصار. فلم يمض على تعريب كل من مصر وإيران سوى عدة قرون حتى طالعنا شاعر الوطنية الإيراني "الفردوسي" بملحمته "الشهنامة" منظومة باللغة الإيرانية الحديثة. وفي الوقت نفسه كان أقباط مصر يتخلون عن القبطية ويستبدلون بها العربية في شئونهم اليومية بل والدينية أيضاً[1].

ولقد تناول الباحثون فيما تناوله من دراسة مصر القديمة الحديث عن الشخصية الأدبية وسجلوا لها أعمالاً مختلفة منها الأساطير والقصص ومنها الشعر الغنائي في المديح والهجاء والأناشيد الدينية والتعليمية والغزل والغناء وقد اتصفت هذه الأعمال بصدقها في التعبير عن الروح المصرية وتمثيلها لخصائص البيئة[2].

وبذلك يكون الأدب المصري قد اكتسى ثوباً جديداً بدخوله مرحلة التعريب شأنه في ذلك شأن مختلف ألوان أنشطة الحياة المصرية واللغة العربية كما هو معروف عنها- لغة فصاحة وأدب وشعر- وربما كانت تلك أهم مميزاتها، ولا سيما في الفترة التي بدأت عندها عملية تعريب مصر، فلم تكن اللغة العربية في تلك المرحلة لغة فنون وعلوم، ولم يكن قد تحرك فيها اللسان الأجنبي فيفسد الفصاحة.

(1) فصاحتها:

ومع ذلك فإن الشخصية المصرية لم تنجذب إلى هذا الجانب

---

(1) الشخصية المصرية للدكتور / أحمد سيد، ص65.
(2) تاريخ الشرق الأدنى القديم للدكتور / عبد العزيز صالح ص325، وراجع القصص والحكم والتأملات في الأدب المصري القديم لحسن سليم، الجزء الأول.

الحضاري بقدر انجذابها إلى جوانب أخرى وبذلك ظل أدبها العربي أقل شأناً من أدب أمة أخرى مستعربة كالفرس مثلاً، وأقل شأناً من شخصيتها العلمية التي برزت غيرها في ميدان العلوم الدينية، كالتفسير والقراءات والفقه والحديث وعلوم التاريخ والقصص، والسر، وأثمرت فيها ثمرات ما زالت شاهدة على تفوقها في الوقت الذي لا نرى لها مثل هذه الآثار في الحياة الأدبية.

وقد مر الأدب العربي بمصر بأطوار عدة، لكن مسيرته في عصوره كانت مختلفة تماماً عن مسيرة الأدب العربي في غيرها من الأقطار الأخرى من حيث القوة والضعف، وما يتبع ذلك من دلالة الأدب على الشخصية والتعبير عن متطلبات البيئة والعصر والإنسان، ولقد تأخر ظهور الأدب العربي بمصر تأخراً ملحوظاً إذا قورن بظهوره في غير مصر من الأقطار الأخرى وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لم يكن للبيئة المصرية سابق عهد بمعرفة اللغة العربية أو استخدامها قبل الفتح العربي وظلت فترة غير قصيرة عاجزة عن التعبير بهذه اللغة عن متطلباتها، فضلاً عن إنشائها أدباً يصور شخصيتها. ومصر من هذه الناحية تختلف عن الشام والعراق، فقد كانت باديتاهما عربية اللسان قبل الإسلام مما أعانهما على الانطلاق اللغوي في فترة مبكرة من الفتح العربي. ومعنى هذا أن بيئة مصر اللغوية لم تكن قد تهيأت بعد لإنتاج الأدب العربي إنتاجاً يعبر عن سماتها. وازدهار الأدب في جميع الأمم وعلى مر العصور يتوقف على صلته بجمهوره، فكلما وجد الأدب صداه في البيئة التي ولد فيها نما وازدهر وكلما ابتعد جمهوره

عنه انعزل واضمحل وفني.

ثانياً: ركزت مصر اهتماماً ملحوظاً على الجانب العلمي في الثقافة الإسلامية، منذ بداية تعريبها، ومن ثم كان النثر العلمي أسبق ظهوراً في البيئة المصرية من النثر الأدبي ومن الشعر أيضاً ولأمر ما، كانت نهضة النثر العلمي في مصر سابقة على غيرها من فنون القول في النهضة العربية الحديثة، بينما كانت نهضة النثر الأدبي هي السابقة على غيرها.

ثالثاً: لم يكن لمصر نوع من الاستقلال الذاتي أو الاستقرار السياسي أثناء فترة الولاة الذين كانوا يتناوبون الحكم فترات وجيزة، لم يتمكنوا من تأسيس بيئة أدبية كسائر البيئات التي تكونت في ظل استقرار الأوضاع السياسية[1]. وإن كان نصيب الشخصية الوطنية قليلاً، في إنتاج هذه البيئات لارتباط الأدباء عادة بأشخاص معينين هم ذوو الجاه والسلطان في الدولة، لكن هذا الارتباط لا يعوق وضوح الشخصية الإقليمية في إنتاجهم، ولا يخفى دور تشجيع الحكام في نمو الأدب وازدهاره خاصة الشعر العربي، وفي كل عصوره قبل العصر الحديث. ولكن هذه الأبيات أخذت طريقها إلى التحول مع بداية الحكم الطولوني لمصر سنة 254هـ، وجدت عوامل أخرى كانت وراء ظهور بواكير الشخصية المصرية في الأدب العربي، وأهم هذه العوامل:

1- وضوح الشخصية السياسية على أثر استقلالها عن الخلافة العباسية

(1) لم يستقر الولاة في مصر فترات طويلة خاصة في العصر العباسي، فقد حدث أن تولى حكم البلاد المصرية ثلاثة ولاة في عام واحد (219هـ) وبلغ عدد اللذين تولوا مصر في خلافة " هارون الرشيد " وحده نحو اثنين وعشرين والياً.

على يد أحمد بن طولون سنة254هـ ثم على أيدي الإخشيديين سنة 323هـ.

ولم تكن مصر وحدها هي الدولة التي استقلت عن الإمبراطورية العباسية، فقد انفصلت دولة الأمويين في الأندلس والبويهيين في فارس، والأدارسة والأغالبة في المغرب، وتبع هذا الانفصال تنافس شديد بين حكام هذه الإمارات، وحاولت كل دولة أن تحذو حذو بغداد في ذيوع شهرتها وارتفاع مكانتها.

وكان الأدب بصورة عامة والشعر على وجه الخصوص أكبر وسائل الإعلان في تلك العصور، وأراد الطولونيون منافسة العباسيين، في الإغداق على الشعراء وتقريب العلماء، وطمعوا في أن يجعلوا من مدينة "القطائع" عاصمتهم بمصر مدينة يشيد بها التاريخ كما أشاد ببغداد، فبذلوا العطاء وأكثروا من الهدايا، وكونوا حولهم بلاطاً أدبياً أشبه ما يكون ببلاط العباسيين، فأنتجت هذه الحياة في مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً، واجتمع في مصر عدد كبير من الشعراء حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم إذ نقل عنه المقريزي أنه قال في كتابه "حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة": رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون. قال فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكم يكون شعرهم"؟.

ومهما يكن من أمر عدد شعراء الطولونيين، فقد صوروا جوانب من الحياة المصرية تلقي أضواء على الشخصية المصرية في أدب هذه

الفترة.

وربما فاق اهتمام الطولونيين بالنصر اهتمامهم بالشعر، فأحمد بن طولون، كما يقول القلقشندي: أول من أخذ في ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية، ولما شمخ سلطانه وارتفع بها شانه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات[1].

وآثر ابن طولون أن يتخذ كتابه من المصريين، وإن لم يبلغوا مبلغ غيرهم في فن الكتابة وكانت فلسفته في ذلك، أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه، وأن يكون شمل الكاتب فيه، فإنه يجتمع له في ذلك البلد، أمور صالحة، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد، فيعود مرفقه على فريق من أهله، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي[2].

وقد أدت فلسفة ابن طولون ومن سلك دربه إلى إتاحة الفرصة أمام المصريين أن يمارسوا هذا الفن في أكبر مسارحه، فأبدعوا فيه في وقت مبكر، وظهر بعض الكتاب المصريين أيام الطولونيين من أمثال جعفر بن عبد الغفار.

2- ظهور جيل من المصريين تشرب الحياة المصرية وأتقن اللغة العربية، في مدرسة الأدب التي أنشأها كبار شعراء العربية وأدبائها الوافدين إلى مصر الزائرين والمقيمين خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، كما كان لأحفاد كاتب العربية المعروف "عبد الحميد بن

---

(1) صبح الأعشى ج1 ص 28.

(2) سيرة أحمد بن طولون، لأبي عبد الله البلوي، تحقيق محمد كرد علي، ص 15، دمشق 1358هـ.

يحيى- كاتب مروان بن محمد آخر خليفة أموي- دور في تنشيط الكتابة الديوانية بمصر حيث استقروا بها. وبرز من بينهم كتاب من أمثال الحسن بن محمد أبي المهاجر وأخوته، علي، وأبو القاسم، وأبو عيسى وكلهم من نسل عبد الحميد الكاتب الذين نشأوا بمصر فتشربوا الحياة المصرية وعدوا منها"[1].

3- وهناك عامل مهم له أثره في ظهور الشخصية المصرية في الأدب العربي، وهو أن ملامح البيئات الإقليمية أخذت طريقها إلى الظهور والتأثير في الشعر العربي بصورة عامة، وإن اختلف وضوح تأثير بعض البيئات عن بعضها الآخر.

وفي القرن الرابع الهجري بلغت النهضة الإسلامية أوج عظمتها، وأخذت مصر موضع الصدارة في العالم الإسلامي بما تهيأ لها من أسباب داخلية وخارجية، إذ بدأت دولة الفواطم فتية في مصر واستطاعت أن تضم إليها بلداناً من الشرق والغرب، وفي الوقت نفسه كانت هيبة الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً. وظهر خطر الصليبيين يهدد المنطقة العربية بأسرها وأخذت مصر بحكم الموقع والموضع والخصائص البشرية تتحمل شرف الريادة في الدفاع، وتجمعت بكل طاقاتها خلف المصلحين من زعماء الإسلام وكانت اللغة العربية في مصر قد استقرت لغة تعامل وتعبير عن متطلبات الحياة بمختلف شئونها وتجمعت عوامل أدت إلى نبوغ الأدباء المصريين فأخذوا دورهم في تصوير

(1) الوزراء والكتاب، لأبي عبد الله محمد الجهشياري، ط/1 القاهرة 1938م ص82.

حياتهم عاكسين في إنتاجهم مؤثرات بيئتهم بما انطبع في أذهان كل منهم، وما كان لهم أن يتفقوا في نظرتهم نحو الأشياء وما كان للأحداث أن توزع آثارها بقدر واحد على جميع الناس، ومع ذلك فهناك تيارات واتجاهات تجمع الشتيت حولها تقاربا أو تنافراً وتعكس لنا بذلك سمات الطابع القومي"[1].

❖❖❖

الحياة الأدبية في عصر الولاة
(20هـ - 254هـ)

ونقصد به تلك الفترة من دخول العرب مصر سنة 20هـ وحتى قيام الدولة الطولونية سنة 254هـ ويتمثل ذلك في عدة عهود وهي:

أولاً- عهد الخلفاء الراشدين:

حيث كان الأدب في مصر يحمل بين طياته ما تحركت به ألسنة الشعراء الذين فتحوا هذه البلاد. ولم يكونوا بعد قد توقفت علاقاتهم بأهلها فجاءت مظاهر هذا الأدب في الإفصاح الذي لا تشوبه شائبة وفي مجالس سمرهم وفي معاملاتهم وخطبهم وكتبهم المتبادلة بينهم وبين الخلفاء لتدبير شئون تلك البلاد. وقد تمثلت تلك المظاهر الأدبية فيما يلي:

(أ) الشعـــــر:

حيث ظل كما هو شعر الفطرة الذي عرفه العرب في جاهليتهم

(1) الشخصية المصرية للدكتور/ أحمد سيد ص 72.

وبعد إسلامهم بعيداً عن الزخرف والزينة. فهو شعر النفس المرسلة بقوله الرجل منهم في المفاخرة بآياته وفي الاعتزاز بدينه كما يقوله في الحكمة والمدح وغيرهما.

(ب) الخطابـــــة:

فقد كانت زاد المسلمين الذي يحتاجون إليه للحث على القتال ونشر الدين. كما يحتاجونها في السياسة وفي الجمع والأعياد حيث كان الوالي يقوم بها في كل جمعة لبحث المخاطبين على الصبر في والبقاء في الرباط وفي الحث على حسن الجوار لمن يخالطونهم من أهل البلاد المفتوحة ومن ثم قام العرب بالخطابة في مصر قائلين في كل هذه الأغراض ومن الأمثلة على ذلك تلك الخطب:

(1) خطبة عمرو بن العاص في جيشه:

وهي تلك التي رواها صاحب أشهر مشاهير الإسلام من تاريخ ابن عساكر قال: أقام المؤذن الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر... فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه ﷺ ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم وحض على الزكاة وصلة الرحم ونهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك: يا معشر الناس: إياي وخلالاً أربعاً فأنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز إياي وكثرة العيال وانخفاض الحال، وتضييع المال والقيل والقال في غير درك ولا نوال...

يا معشر الناس: قد تدلت الجوزاء وركبت الشعري وأقلعت

السماء وارتفع الوفاء[1] وطاب المرعى... فحي بكم على بركة الله على رفعكم فتناولوا من خيره ولينه ومرافقه وصيده وأريعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم: واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً وإياي والمومسات المفسدات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم حدثني عمر بن الخطاب "أمير المؤمنين" أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة[2].

(2) خطبة قيس بن سعد:

لما بعثه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أميراً على مصر. دخل قيس في سبعة من أصحابه فصعد المنبر، فجلس عليه وأمر بكتاب أمير المؤمنين فقرئ على أهل مصر بولايته وبأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق. ثم قام قيس خطيباً فقال:

"الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين. أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فإن نحن لم نعلم لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم. فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر"[3].

(ج) الرسائل:

وهي تلك التي كانت متداولة بين الوالي والخليفة. فعندما أصاب

---

(1) بريد وفاء النيل أي زيادته0
(2) راجع فيما سبق أشهر مشاهير الإسلام ج650/3، وكذلك النجوم الزاهرة، ج29/1.
(3) الكامل لابن الأثير ج106/3.

الناس بالمدينة جهد شديد على أيام الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- حتى سمي العام بعام الرمادة بهلاك الناس والأموال فيه، فكتب عمر إلى عمرو يقول له: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص: سلام أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك من أهلك. وأن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه ثم يا غوثاه.

فكتب إليه عمرو: من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين، أما بعد، لبيك ثم لبيك، قد بعثت إليك بقافلة أولها عندك وأخرها عندي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

تلك هي بعض الخطب والرسائل التي كانت تدور على الألسنة بين الوالي والخليفة وتكون دائماً لمصلحة الرعية وتدبير شئونهم، ومن ثم كانت مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية في تلك الفترة من عصر الولاة.

❖❖❖

ثانيا- في عهد بني أمية:

ظلت مظاهر الحياة الأدبية بمصر في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، حيث انحصرت الحركة الأدبية في النشاط الشعري الذي جاء على ألسنة الشعراء الوافدين من أمثال جميل بن معمر، وكثير عزة، وأيمن بن خزيم، ونصيب بن رباح وغيرهم من الشعراء، ولكننا نلحظ نشاطاً للحركة الأدبية في عهد عبد العزيز بن مروان يختلف عن سابقيه، ولذلك نفرد الصفحات التالية للحديث عن الحركة الأدبية في عهد عبد العزيز بن مروان "65- 86هـ" وهي فترة ولايته على مصر. حيث شهدت

(1) أشهر مشاهير الإسلام ج605/3، 606.

مصر في العصر الأموي كثيراً من الحركات السياسية والدينية التي اضطرم بها المجتمع الإسلام آنذاك، ومما يدلنا على ذلك امتداد حركة ابن الزبير إليها إذ نجح الزبيريون في فرض سلطانهم عليها بعض الوقت حتى استطاع مروان بن الحكم الخليفة الأموي أن يدخلها ويقضي على الحكم الزبيري فيها ويستخلصها لنفسه، ويولي عليها ابنه عبد العزيز سنة 65هـ، وقد ظل عبد العزيز والياً على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة، وكانت هذه الفترة أكثر ازدهاراً من الناحية الفكرية والأدبية- من الفترة السابقة- وفيها انتعش الأدب عامة والشعر خاصة، وصارت مصر تموج بالشعراء الذين أموها وقصدوا واليها، وكان لهم تأثيرهم البالغ في الحياة الأدبية آنذاك.

ويرجع ازدهار الحياة الأدبية في عهد عبد العزيز إلى عدة أسباب من أهمها: استقرار الحالة السياسية فلم نسمع عن فتن أو اضطرابات كثيرة في فلك العهد، ومن ثم أدى ذلك إلى استقرار المجتمع[1]، واستقرار نفسية الشعراء، وأن يأمنوا على أنفسهم إذا قصدوا ذلك الوالي، وأن تغريهم تلك الحالة المستقرة إلى الوفود إليه. وقد نتج ذلك الاستقرار عن طول الفترة التي قضاها عبد العزيز في الحكم وعنايته بشئون إمارته.

وقد ترتب على ذلك الاستقرار السياسي استقرار الحالة الاجتماعية وتقدم الحضارة وازدهارها فلقد اعتنى عبد العزيز- على سبيل المثال- بمدينة حلوان التي أتخذها عاصمة له وبنى بها الدور

(1) راجع في ذلك دراسات في أدب مصر الإسلامية للدكتور/ غريب محمد علي، دار البيان سنة 1988م.

والقصور والمساجد وأخذ الشعراء يصفون تلك المظاهر الحضارية الجديدة ويصورونها في شعرهم.

ومما يضاف إلى بواعث الازدهار الأدبي كرم عبد العزيز وجوده فلقد كان كريماً جواداً سخياً، ومما يدلنا على ذلك أنه كان" له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل"[1]، وكان أكثر سخاء وجوداً مع الشعراء، ومن ذلك ما يرويه المقريزي من أن الشاعر نصيباً دخل عليه في مرضه منشداً:

ونزورُ سيَّدنا وسيِّد غيرِنَا ∴ لَيْتَ التَّشَكِّي كانَ بالعُوَّادِ

لو كانَ يقبلُ فِدْيَةً لفديتُه ∴ بالمُصْطَفى من طار فِي وتِلادِي

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار[2].

ومن تلك الأسباب أيضاً أن عبد العزيز نفسه كان يحب الشعر ويشجع على نظمه بكل سبيل، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول قصره إلى بلاط شعري ينافس البلاط الأموي في الشام.

ومما يدلنا على حبه الشعر وحثه على إنشاده أن النصيب دخل عليه مرة فطلب منه عبد العزيز أن ينشد قوله:

إذَا لمْ يكُنْ بينَ الخليلينِ ردَّةٌ ∴ سوى ذِكْرِ شيءٍ قَدْ مَضَى دَرَسَ الذِّكْر

فقال النصيب: هذا ليس لي وإنما هو لأبي صخر الهذلي، ولكنني الذي أقول:

وقفتُ بذي ودانَ أنشُد ناقَتِي ∴ وما إنْ لي بها من قَلوصٍ ولا بكرِ

---

(1) الولاة والقضاة ص51.

(2) الخطط ج1 ص391، وراجع أيضا الشعر والشعراء لابن قتيبة ج1 ص 516، وانظر: حسن المحاضرة للسيوطي ج1 ص 587، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ عيسى البابي الحلبي سنة 1967م/ وزهر الآداب ج2 ص279.

فقال عبد العزيز للنصيب لك جائزة على صدق حديثك وجائزة على شعرك، فأعطاه ألف دينار على صدق حديثه وألف دينار على شعره[1].

ولم يكن عبد العزيز يحب الشعر فحسب بل كان يتذوقه ويحسن نقده ويفاضل بين الشعراء[2].

وعلاوة على ما تقدم فقد كان ولي العهد بعد عبد الملك وقد أدى هذا الأمر إلى أن تتعلق آمال الشعراء به وأن يخطبوا وده.

وهذه الأسباب كلها وغيرها أدت بطبيعة الحال إلى انتعاش الحركة الأدبية عامة والشعرية خاصة.

انتعاش الحركة الشعرية في عهد عبد العزيز:

لعل أهم مظاهر انتعاش تلك الحركة يتلخص في الكثرة والتفوق والتنوع، ونعني بالكثرة كثرة الشعراء وخاصة الذين اتصلوا بعبد العزيز وفيهم من هو مشهور معروف مثل جميل بثينة وكثير عزة وعبيد الله بن قيس الرقيات والنصيب وأيمن بن خزيم والأحوص وهؤلاء كلهم وافدون، ومنهم من كان مغموراً مقيماً في مصر مثل أمية بن أبي عائذ وذي الشامة بن عمرو والمثلم البلوي وزهير بن قيس البلوي وغيرهم.

والكثرة أيضاً تعني كثرة الشعر فلقد كثر الشعر في ظل عبد العزيز كثرة لافتة للنظر، والكثرة نعني بها طول النص، ففي الفترة السابقة لم نكد نعثر إلا على قصيدة أو اثنتين أما في هذه الفترة فلقد

---

(1) انظر الأغاني ج1 ص 132 وما بعدها ط/ عز الدين - بيروت0
(2) راجع مفاضلاته بين الشعراء في الأغاني ج1 ص 127 وما بعدها.

كثرت القصائد وطالت.

أما التفوق فنقصد به الجودة، فلقد جوَّد الشعراء في صنعتهم الشعرية واعتنوا بالصياغة وأحكموا التركيب. ونعني بالتنوع تنوع الأغراض الشعرية وتعددها، وهنا نود أن نقف عند أبرز هذه الأغراض.

(1) المـــدح:

كان المدح في عصر عبد العزيز أكثر الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء وكانوا في الحقيقة يبغون من وراء ذلك الرفد والعطاء وكان الخليفة نفسه معطاء وبمعنى آخر أن المدح لم يكن آنذاك حسبة لوجه الله إنما تحول به الشعراء إلى التكسب والارتزاق ومما يدلنا على ذلك قول النصيب:

وإنَّ وراءَ ظهرِي يا ابنَ ليلى ∴ أناساً ينظرونَ متى أَؤوبُ

أمامـــةُ مـــنهمُ ولمأقِيهِمَـــا ∴ غداةَ البينِ في أثرِي غُروبُ

فـأَتبِعْ بعضـنَا بعضًـا فلسـنا ∴ نُثيبُـكَ لكـنِ اللهُ المُثِيـبُ[1]

فالشاعر هنا ينتظر الأعطية ويرغب في الهبات ويحاول من خلال ذلك أن يثير عطف الخليفة عليه إذ يشير إلى أن هناك أناساً ينتظرون عودته، ورغم إعلانه في النهاية أن المثوبة من الله فإنه يحاول أن يقول في قصيدة أخرى:

فِمنْكَ العطاءُ ومِنِّي الثَّنَاءُ ∴ بكُلِّ مُحَبَّرةٍ سائرةُ[2]

لقد امتدح الشعراء صفات عبد العزيز كلها وأشادوا بكل فضائله وخلائقه وهو- دوماً- السابق إذا ما تبارى الناس في ميدان

(1) الأغاني ج1 ص 131.
(2) الأغاني ج1 ص129، وانظر الشعر والشعراء ج1 ص412.

الأخلاق وتسابقوا إلى حلبة المكرمات كما يقول كثير:

إذا ابتدرَ النَّاسُ المكارمَ بذَّهُم ∴ عراضةُ أخلاقِ ابنِ ليلى وطُولُها[1]

(2) الوصـــف:

كان من المنتظر أن يقف الشعراء عند المتغيرات الحضارية الجديدة يصفونها ويتحدثون عنها لكن ذلك لم يحدث كثيراً ولعلهم قد شغلوا بالممدوح أكثر من انشغالهم بالمكان؛ لأن العطاء كان همهم الأكبر، ومع ذلك لانعدم وجود مقطوعات في الوصف، ولعل من أهم ما وصفه الشعراء- في هذه الفترة- وصف مصر التي تختلف طبيعتها عن الأمصار الإسلامية الأخرى، وأهم ما وقفوا عنده في مصر مدينة حلوان التي بناها عبد العزيز واحكم غرسها واتخذها حاضرة له وبنى فيها الدور والقصور والمساجد وأحسن عمارتها، وعن هذه المدينة يحدثنا ابن قيس الرقيات قائلاً:

سَقْيًا لِحُلْوانَ ذِي الكُرومِ ومَا ∴ صَنَّفَ مِنْ تِينِهِ ومِنْ عِنَبِهْ

نُخْلُ مواقِيُرُ بالقَنَاءِ مِنَ الْـ ∴ بَرْنِي يهتُزُ ثَمَّ فِي سُرَبِهْ[2]

ومن الأمور التي وقف عندها الشعراء يصفونها: المعارك التي دارت بين عبد العزيز وبعض خصومه وذلك مثل المعركة التي دارت بينه وبين ابن جحدم والي ابن الزبير وفي وصف هذه المعركة يقول عبد الرحمن بن الحكم:

ألا هل أتاها على نأيِها ∴ نِبَاءُ الروايح والخنْدقِ

وجَاشَتْ لنا الأرضُ من نحوِهِمْ ∴ بيحَيَّىْ تُجيبَ ومِنْ غَافقِ

---

(1) ديوان كثير ص 34.

(2) ديوان ابن قيس الرقيات ص13، محمد يوسف نجم ط/ بيروت سنة 1958م0

فلــو كنــتِ رملــةُ شــاهدتِه ∴ تمنَّيتِ أنْكِ لَمْ تُخْلقِي[1]

وكما وصفوا بعض الأماكن وما استجد بها وبعض المعارك وما دار فيها فقد وصفوا- إلى- جانب ذلك- بعض رحلات عبد العزيز والسفن التي كان يستخدمها في تلك الرحلات ومن ذلك وصف عبيد الله بن قيس الرقيات رحلة لعبد العزيز إلى الإسكندرية كانت سنة إحدى وثمانين، يقول ابن قيس الرقيات:

غَــدَوْا مِــنْ ورج الكِرْيَــو ∴ نِ حيــث ســفينُهُمْ حُــزُقُ
فلمَــا أنْ علَــوْنَ النَّــي ∴ ــــلَ والرَّايــاتُ تَخْتَفــقُ
رَأيْــتُ الجــوهرَ الحَكَمــيَّ ∴ والدِّيبــاجُ يَأْتِلــقُ
ســفائنُ غيــرُ مُقْرِفَــةٍ ∴ إلــى حُلــوانَ تسَــتَبِقُ[2]

(3) الفخــر:

لا يقابلنا من الفخر في شعر هذه الفترة إلا مقطوعة واحدة للمثلم البلوي يفخر فيها بقيس بن أوس البلوي الذي سابقه عبد العزيز فجاء قيس سابقاً وهي مقطوعة تذكرنا ببعض الأحداث الجاهلية مثل سباق داحس والغبراء لكنها تدل على سعة صدر الخليفة ورفقه وتدل على الحرية التي كفلها لشعبه فلم يعاقب قيساً ولم يضيق ذرعاً بالمثلم يقول المثلم:

تداركَنَا قيسُ بنُ أوسٍ بسَبْقِه ∴ وسارَ مِنَ البَلْقَاءِ غيرَ مُكَذِّبِ
يَسومُ ويستدرِي الغلامَ عنانُه ∴ إذَا مَا جرتْ مِنْ غائطٍ متصَوِّبِ

(4) الهجــاء:

(1) الولاة والقضاة ص 44.
(2) الولاة والقضاة، ص 44.

وكما لم يقابلنا من الفخر إلا مقطوعة واحدة فكذلك لا يقابلنا من الهجاء إلا قصيدة لأيمن بن خزيم قالها يعرِّض فيها بعبد العزيز بعد أن حدثت بينهما جفوة، استأذن أيمن على إثرها عبد العزيز فخرج إلى الشام قائلاً:

رَكِبْتُ من المُقطَّمِ فِي جُمَادَى ∴ إلى بِشْرِ بنِ مروانَ البريَدا
ولَوْ أعطَاكَ بِشرٌ ألفَ ألفٍ ∴ يَرَى حقًّا عليهِ أنْ يَزِيدَا
أميرَ المؤمنينَ أقِمْ للِشرِ ∴ عَمودَ الدِّينِ إنَّ لَه عمودَا
ودَعْ بِشرًا يُقِّومهمْ ويُحدِث ∴ لأهلِ الزَّيغِ إسلامًا جديَدا[1]

ويبدو أن الشاعر قد ظلم عبد العزيز إذ لم نجد من الهجاء سوى هذه القصيدة التي تدل على أن أيمن بن خزيم لم يحفظ الود بل أنكر المعروف والخير اللذين أسديا إليه من عبد العزيز.

(5) الرثـــاء:

الرثاء هو فن تأبين الموتى، ولقد تفنن الشعراء في تأبين عبد العزيز وابنه الأصبغ وأكثروا من ذلك إكثاراً فذرفوا العبرات وسكبوا الدموع غزيرات وبكوا أياماً ماضية وعزاً عاشوه في أكناف عبد العزيز ومضوا يخلدون ذكراه في شعرهم ويتحدثون عن خصاله وأعماله ويرون أن مصر بعد عبد العزيز لن تورق بالخير ولن تونق كما يقول ذو الشامة:

فَمَا مَصْرُ لِي بعدَ عبدِ العزيـ ∴ ـزِ والأَصْبَغِ الخيرِ بالمُونِقَهْ
فإنْ تَكْ مصرُ أشارتْ بها ∴ إلى الشَّرِّ يومًا يدٌ موبِقَهْ
فقِدْمًا تَقَرَّ بَمصْرَ العيـو ∴ نُ في لَذَّةِ العيشِ مُحدَودقَهْ[2]

---

(1) الأغاني ج21 ص 8.
(2) الولاة والقضاة ص 56.

لقد تجرع الشعراء الألم غصصاً وخيم الحزن على قلوبهم وأرجاء نفوسهم، فنفوسهم قد تحطمت على صخرة الموت وساءت أحوالهم فمضوا يصفون لوعتهم وحسرتهم ويبكون بكاءً مراً أليماً؛ فهم أحق الناس بالبكاء، وذهبوا يتحدثون عن ماضي عبد العزيز وأمجاده وذهبوا يعددون مفاخره ومآثره يقول سليمان بن أبان الأنصاري:

فَمنْ ذا الذِي يَبْنِي المكارمَ والعُلا ∴ ومَنْ ذَا الذِي يهدِي لَهُ بعدَك السفر

فكُنتَ حليفَ العُرفِ والخيرِ والنَدى ∴ فمِنن جميعًا حينَ غَيَبَك القبر

فبعُـدَكَ لا يُرجَـى وليـدٌ لنَفْعَـةٍ ∴ وبعْـدَكَ لا يُرجَـى عـوَانٌ ولا بِكْـرُ

إنه الرزء الجلل والداهية الدهياء التي لم ير ولم يسمع بمثلها، والتي فجع بها الشعراء ونكبوا ولا حيلة لهم أمامها إلا البكاء أو الصبر كما يقول النصيب:

فإنْ أبْكِه أُعْذَرُ وإنْ أغْلِب الأَسَى ∴ بَصَبْرٍ فمِثْلي عِنْدَما اشتدَّ يَصْبِرُ [1]

لقد ندب الشعراء حظهم العاثر وماضيهم الغابر فامتلأ شعرهم زفرات وحسرات وأخذوا يتمنون عودة الأيام التي نعموا فيهما بالاتصال بعبد العزيز، ولكن هيهات فليس أمامهم إلا التسليم المطلق بقضاء الله فلذا فقد كتب على باب قصر عبد العزيز قول الشاعر:

أينَ ربُّ القَصْرِ الذي شَيَّد القصْـ ∴ ـرَ؟ وأينَ العبيدُ والأَجْنَادُ

أينَ تلكَ الجُموعُ والأمرُ والنَّهْـ ∴ ـيُ وأعوانُهمْ وأينَ السوادُ[2]

---

(1) الأغاني ج1 ص 14.
(2) حسن المحاضرة ج1 ص587.

هذا القول الذي يدل على المرارة المريرة والحزن الدفين على ما أصاب القصر من خراب وتدمير وعلى ضياع الملك وتبديد الشمل. إنها مصيبة- رغم هذا التسليم المطلق لله- لن ينساها الشعراء أبداً على مر الدهور وكر السنين وهذا ما يشير إليه قول النصيب:

تَـاللهِ أَنْسَـى مُصيبَتي أبـدًا ∴ مَا أَسْمَعَتْنِي حَنِينَها الإبِلُ

ولا التَّبكـي عليـهِ أُعْوِلـه ∴ كُلُّ المَصِيباتِ بَعْدَهُ جَلَلُ[1]

تلك لمحة سريعة عن الحياة الأدبية وخاصة الشعرية في عهد بني أمية حين كان يتولى أمر مصر الأمير عبد العزيز بن مروان يتضح لنا من خلالها مدى الازدهار الذي شهدته تلك الفترة.

❖❖❖

ثالثاً في عهد العباسيين:

ونقصد تلك الفترة التي كان فيها الخلفاء من بني العباس ولاة بمصر تابعون لهم خاضعون لأوامرهم يدينون لهم بالطاعة والولاء وهي تلك الفترة التي كانت بين سنتي 132هـ وحتى 254هـ حين استقل أحمد بن طولون بمصر.

ولا تختلف تلك الفترة عن سابقتها من حكم بني أمية كثيراً حيث لم يكن لمصر ملك مستقر ومن ثم لم يكن لها أدب مستقر أيضاً.

وإنما سوف نشير سريعاً إلى الشعراء الذين جاءوا إلى مصر في عهد هؤلاء الولاة من أمثال الشاعر- ربيعة الرضي- دعبل الخزاعي- عوف بن محلم الخزاعي- محمد بن يزيد الحصن- أبو

(1) الأغاني ج1 ص 139.

نواس- أبو تمام الطائي- وغيرهم[1]. وهذا عن الشعراء الذين جاءوا إلى مصر.

ولكننا نستطيع القول بأن الشعر قد نما عما كان عليه في العهدين السابقين حيث وجد في مصر شعراء نشئوا بها وعاشوا فيها وتتبعوا ما مر بها من أحداث فسجلوها.

وقد كان لعدم استقرار الولاة في مصر وخاصة في عدي الرشيد والمأمون حيث عرفنا بكثرة تغيير الولاة في مصر في عهدهما، وأثره في الشعر حيث وجدنا شعراء مصر يصفون تلك الأحداث منددين بالولاة ناعين عليهم ظلمهم أو داعين إلى طاعتهم[2].

وإليك صورة لأمثلة من أقوال الشعراء المصريين التي جاءت في تلك الفترة:

(1) موسى بن مصعب وثورة العرب ضده:

ولى مصر موسى بن مصعب من قبل المهدي فتشدد في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما كان عليه فعقدت قيس واليمانية حلفاً فيما بينهم وقاوموا عماله فحاربهم موسى فانهزم وقتل فقال سعيد بن عفير في ذلك يذكر أهل الحوف[3].

ألم ترهم ألوث بموسى سيوفهم ∴ وكانت سيوفاً لا تدين لمترف

فما برحت فيه تعود وتبتدي ∴ إلى أن تردى من حمام مدنف

ولكن أهل الحوف لله فيهم ∴ ذخائر إن لا يُنْقد الدهر تُعْرف

---

(1) راجع الأدب العربي في مصر لمحمود مصطفى ص61 : 72 والشخصية المصرية لأحمد سيد ص 91 : 96.

(2) المصدر السابق ص 73 وما بعدها0

(3) الولاة والقضاة ص 127.

(2) إذعان أهل الحوف ليحيى بن معاذ:

كان أهل الحوف يأبون دفع الخراج ويشاغبون على العمال فأرسل أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ فنزل بجيشه بلبيس فأذعن أهل الحوف بالخراج وكان الشاعر أبو عثمان السكري قد نصحهم بقوله:[1]

يا قيس عيلان إني ناصح لكم ∴ أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا

إني أحذركم يحيى وصولته ∴ فما رأيت له بُقيا إذا غضبا

(3) وفاء كوفاء السموأل:

كان المطلب بن عبد الله الخزاعي والي مصر من قبل المأمون، قد طلب إبراهيم بن نافع الطائي فظهر له أنه مستجير بهبيرة بن هاشم مستتر عنده فأحضر المطلب هبيرة وعرضه على السيف أو يأتيه بالطائي فامتنع هبيرة، فلما سكن المطلب عن الطائي أخرجه هبيرة إلى الصعيد فأفلت سعيد بن عفير[2].

لعمري لقد أوفى وفاق وفاؤه ∴ هبيرة في الطائي وفاء السموال
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه ∴ وقد برقت في عارض متهلل
فما انفك محبوسا ومطلب له ∴ عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده الابعاد إلا توقرا ∴ وصبرا ولم يخشع ولم يتفكل

---

(2) المرجع السابق ص 145.
(3) المرجع نفسه ص 152.

(4) سليمان بن غالب والسرى بن الحكم:

ولى سليمان بن غالب مصر سنة 201ه فقبض على السرى بن الحكم وسيره إلى إخميم من صعيد مصر فكتب السرى إلى بني مدلج فلحقوا به هم وكثير من الناس وأقبل فيهم السرى إلى الفسطاط فقاتله جيش سليمان وتغلب عليه فقال معلي الطائي[1].

إذا شن في أرض سليمان غارة ∴ أثار بها نقعاً كثير المصائب

ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها ∴ على حين دانت للعدو المناصب

حماها ولولا ما تقلد أصبحت ∴ حبيساً على حكم القنا والمقانب

(5) رثاء ميمون بن السرى:

مات ميمون في قتال بينه وبين عبد العزيز الجرومي فقال معلى الطائي يرثيه[2]:

لو رد غرب منية بشجاعة ∴ أحد لدافع ركنها ميمون

لو كان تجريد السيوف يردها ∴ لحماه منها منصل وثمين

ما زلت أطمع في رجوعك سالما ∴ ويروعني شفقاً عليك ظنون

ما زلت أطمع في رجوعك سالما ∴ وليفجعن بقتلك المأمون

(6) عبيد الله بن السرى وعبد الله بن طاهر:

لما أقبل هبد الله بن طاهر إلى مصر لتهدئة فتنها بعث إلى عبيد الله ابن السرى يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن فاضطر إلى محاربته، ولكنه جاء كتاب من المأمون بتأمين عبيد الله فأمنه ابن طاهر، وكان عبيد الله بن السرى صغيراً ملقباً بالأمرد ليس له صبر على الحروب فقال أحمد

---

(1) الولاة والقضاة ص 166.
(2) المرجع السابق ص 17.

الجرومي يتهكم به[1].

أترجو مهاة دفع ضرغام غابة ∴ لشتان ما بين المها والهزابر
وإن أحق الناس أن يشهد الوغى ∴ ويقصف أصلاب الملوك الجبابر
لمن لم يكن في الروع في زي غادة ∴ ولم يحتجب صبحا لمشط الضفائر

(7) خروج عبيد الله بن السرى إلى بغداد:

لما خرج ابن السرى إلى بغداد بعد تأمينه بأمر المأمون قال فيه حبيب بن أوس الطائي [أبو تمام قبل أن يخرج من مصر راحلاً إلى بغداد].

فأورده بغداد يهوي برجله ∴ ذمول ترامي في قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلال نعيمة ∴ وأي نعيم ليس يوما بزائل

(8) مقتل عمير بن الوليد:

كان عمير والياً على مصر فخرج لإخضاع أهل الحوف فانهزموا ولكنه قتل في تلك الموقعة فقال أبو تمام[2]:

ألا رزئت خراسان فتاها ∴ غداة ثوى عمير بن الوليد
فيا يوم الثلاثا كم كثيب ∴ رماه الحزن فيك وكم عميد
فكم سخنت فينا من عيون ∴ وكم أعبرت فينا من خدود
فما زجرت طيورك عن سنيح ∴ ولا طلعت نجومك بالسعود

هذه صور من شعر شعراء مصر في عهد الولاة العباسيين[3].

(د) الكتابة الإنشائية:

(1) في عهد الدولة الطولونية:

تذكر الكتاب في مباحث الأدب فيراد بها كتابة الإنشاء. وهي

(1) الولاة والقضاة ص 182.
(2) المرجع السابق ص 186.
(3) راجع ذلك بالتفصيل في الأدب العربي في مصر ص75 : 77.

قسمان: الرسائل الإخوانية وهي التي تكون بين الإخوان تمثل العواطف الإنسانية من سرور وحزن وعتب وشكر، والرسائل الديوانية وهي تلك التي يتولاها أولئك الكتاب البلغاء يقومون بها من الخليفة أو الملك الكبير، في شئون الدولة السياسية من حرب وسلم ومهادنة وصلح واستمالة عاص وتهديد خارج.

وقد عظم شأن هذا النوع من الكتابة حتى صار رئيسه في الدولة العباسية وكل مملكة متفرعة عنها وزيراً يشير على الخليفة أو الملك، وله في الدولة أعظم مناصبها إن لم يغلبه في بعض الأحيان رئيس الجند، والديوان الذي يتولى شئونه هذا الوزير يسمى ديوان الإنشاء. وهناك كتابة أخرى هي كتابة خراج الدولة ومحاسبة عمالها وضبط أعطيات الجند فيها وتولي صرفها لأربابها. وهذا النوع من الكتابة يسمى كتابة الخراج، وله ديوان يسمى ديوان الخراج. وعمله في الحساب فلا يتناول الأدب بحث أحواله[1].

والذي جرى عليه العمل أن ديوان الخراج كان يوجد حيث يوجد مال يحصل وينفق؛ فكما يكون في دار الخلافة ديوان خراج يكون في كل ولاية كذلك ديوان خراج لضبط حساب الجبايات والجزى وصرف أعطيات الجند ومن إليهم من خدام الدولة.

أما ديوان الإنشاء فلا يكون كما ذكرنا إلا حيث دار الخلافة أو مقر الملك المستقل الواسع الرقعة، وقد كانت مصر قبل قيام الدولة الطولونية ولاية تابعة للخلافة بالمدينة ثم بدمشق ثم بغداد، فلم يكن بها

(1) الأدب العربي في مصر ص133.

ديوان إنشاء على النمط المعرف بحواضر الملك، وإنما كان الوالي هو الذي يتولى بنفسه كتابة الرسائل إلى دار الخلافة[1].

(2) في عهد الدولة الإخشيدية:

لا نذكر هنا إلا كتاب إبراهيم النجيري الذي قدمنا أنه فاخر به أهل عصره حتى نسخ منه عدة نسخ وأرسلها إلى البصرة ليطلع عليه أهلها.

وهاهي تلك صورة الجواب:

من محمد بن طغج مولي أمير المؤمنين إلى المانوس عظيم الروم ومن يليه... سلام بقدر ما انتم مستحقون، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسولهﷺ.

أما بعد فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة وما نمى عنا إليك، وصح من شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه.

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول الذي يليق بذوي الفضل والنبل، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصون وعالمون. وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته.

---

(1) الأدب العربي في مصر ص 133.

أما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والعدل فإنا نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة ووهبها لأوليائه ثم أنابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها وييسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها وعرة القسوة بها[1]، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته وموجبات مرضاته حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى فإنا فقراء إلى رحمته. وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم، وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقي على الدهر، وأنك إنما اختصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غنم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد، وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ولا نقيضه ولا عيباً، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة. فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته.

---

(1) معنى هذه الجملة أنه يدعو الله أن ييسره للاجتهاد في تحصيل فضيلة الرحمة وأن يعصمه من أن يزيغ به الهوى عنها كما يعصمه من عار القسوة ولصوق وصفها به إذا لم يتبع سبيل الرحمة ويستمسك بأهدابها()

والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل لأمر عظيم خطير وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه ولم يعذه من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو أمامكم، وما توجبه عليكم سياستكم والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم، ولولا أن إيضاح القول في الصواب، أولى بنا من المسامحة في الجواب لأضربنا عن ذلك صفحاً.

وبقية الكتاب على هذا النمط فاطلبه في كتاب المغرب وفي صبح الأعشى[1].

والذي نراه في هذا الكتاب أن عبارته لا زينة فيها مطلقاً، ولا فضيلة فيها للفظ أو حسن صياغة، وكأنما أراد الكاتب أن يفرغ معانيه في أي قالب يظهرها واضحة جلية. فهو بهذه المثابة يكاد يفقد شرط كتابة الإنشاء أو النثر الفني وهو التفوق في التعبير والتخير للألفاظ، وعندي أن عذر الكاتب في هذا واضح لأنه يعلم أن كتابه سيترجم والترجمة لا تبقى على شيء من جمال اللفظ وزينته، فرأى الكاتب أن من العبث أن يتعب نفسه في ذلك، وجعل اهتمامه منصرفاً إلى المعنى الذي يحرص أن يصل إلى المكتوب إليه سليماً واضحاً. لذلك

(1) المغرب ص 18 ج4 وصبح الأعشى ج7 ص 11 وما بعدها0

ترى قوة الحجة واضحة وترتيب المعاني منسجماً.

فكنا بحاجة إلى نموذج آخر من كتابة النجيري ويكون قد كتبه إلى قارئ للعربية حتى نرى مقدار تفوقه في عباراته وعنايته بحسن صياغتها. وإن نظرة إلى هذا النص مع كر الطرف إلى النموذج الذي أوردناه لابن عبد كان، لتجلى لك ما قررناه من الحكم على نموذج النجيري. حقاً إن كتابة المصريين لا تمتلئ بالزخارف ككتابة العراقيين، ولكن لا ينتهي إهمال الصناعة في الصياغة إلى الحد الذي وصل إليه النجيري، فإنه يخيل إلينا أنه لو استطاع أن يقيم المعاني بلا ألفاظ ويؤدي المراد بلا تعبير لآثر ذلك[1].

الشعراء في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى الدولة الإخشيدية

لقد عرفت مصر الكثير من الشعراء منذ الفتح الإسلامي فكان منهم من استقر بمصر وتمصر ومن هؤلاء الشعراء: أبوالمصعب البلوى، قيس بن مسلمة، أبو قبان بن نعيم بن بدر النجيبي، عابد بن هشام الأزدي.

وقد أشار الدكتور محمد كامل حسين، في كتابه "أدبنا في عصر الولاة" إلى هؤلاء الشعراء وإلى بعض نصوصهم[2]... وتقع أشعار هؤلاء الشعراء بين سنة 20هـ وحتى سنة 54هـ، ومن ثم فهم من مخضرمي الجاهلية والإسلام.

وقد أشار الدكتور حسين نصار، في كتابه "مصر العربية" إلى

---

(1) راجع بالتفصيل الأدب العربي في مصر ص 191 - 193.
(2) أدبنا في عصر الولاة للدكتور/ محمد كامل حسين ص 116 : 119، القاهرة - طبعة دار الفكر.

شاعرين هذليين استقرا بمصر بعد الفتح الإسلامي لها وهما:

أبو العيال بن أبي عنترة: وهذا الشاعر عرف بجودة شعره وله قصيدة موجهة إلى ولاة الأمر عبر فيها عما لاقى هو وإخوانه من الجند من المشقة وويلات المعارك. وعن الحنين للعودة إلى مصر وله مرثية في رثاء أخيه لأمه "عبد بن زهرة" الذي كان جندياً في حملة "زيد بن معاوية" على القسطنطينية سنة 49هـ.

بدر بن عامر: وقد كانت له بعض النقائض مع "أبو العيال بن أبي عنترة"، وتعد هذه النقائض من تراث النصف الأول من القرن الأول الهجري[1] فهي بذلك سابقة لنقائض جرير والفرزدق والأخطل المشهورة.

وهناك شاعر آخر هو "معاذ بن موسى" وهو حفيد (مجاهد بن جبر) الذي كان عاملا لعمرو بن العاص على الخراج أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فمعاذ هذا من شعراء النصف الأول من القرن الأول الهجري[2].

الشاعر جميل بن معمر، الذي هاجر إلى مصر وتوفى بها سنة 82هـ[3]، وللأستاذ الدكتور حسين نصار- مجموع عنوانه: "ديوان جميل وعلاقته بمحبوبته بثينة" وهجرته إلى مصر حيث استقر ومات بها[4].

وما تكاد تصل إلى القرن الثاني الهجري حتى تلحظ ظهور

---

(1) مصر العربية للدكتور/ حسن نصار ص 89 : 89، القاهرة 1961م0
(2) فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ص 178 : 179، لندن سنة 1920م.
(3) وفيات الأعيان لابن خلكان ج1/ 371، القاهرة سنة 1964م.
(4) ديوان جميل للدكتور/ حسين نصار، القاهرة سنة 1979م.

شعراء مصريين أبدعوا في شتى موضوعات الشعر. وعرض لهم صاحب "أدبنا في عصر الولاة"[1]، وممن ذكرهم ذكراً عابراً مؤسس التصوف الإسلامي "ذو النون المصري"[2]. الذي عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وله أشعار كثيرة في المصادر الصوفية[3].

وما تكاد نصل إلى القرن الثالث الهجري حتى نجد الشعراء المصريين الخُلصّ وما بقي من دواوينهم يدل على إبداعهم في شتى الموضوعات كالغزل ووصف الطبيعة والمدح والفخر والهجاء ورثاء الدول الذي سبقت به مصر الأندلس في هذا المضمار[4].

ومن غريب أخبار الشعر في هذا القرن ما ذكره الإدفوي في كتابه "الطالع السعيد" عن الشاعر "محمد بن أحمد الأسواني" المتوفى سنة 325هـ. ذكره يونس وقال: "وكان فقيهاً على مذهب الشافعي أديباً فصيح اللسان وله نظم ومن نظمه قصيدة ذكر فيها قصص الأنبياء نبياً نبيا قال: وبلغني أنه سئل قبل موته كم بلغت قصيدتك؟ قال: ثلاثين ومائة ألف بيت[5].

ومن أشهر شعراء القرن الثالث الهجري "السراج" أستاذ "أبي تمام" و"هاني الموسوس" و"سعيد بن عفير" و"المعلى الطائي" و"الجمل الأكبر" و"قعدان بن عمرو" و"منصف بن خليفة الهذلي" و"القاسم بن يحيى المريمي" و"سعيد القاص" الذي رثى الدولة الطولونية و"إسماعيل بن

(1) أدبنا في عصر الولاة للدكتور/ محمد كامل حسين ص137 - 195.
(2) المصدر السابق ص 153.
(3) وفيات الأعيان لابن خلكان ج1 /324 - 327.
(4) أدبنا في عصر الولاة للدكتور/ محمد كامل حسين ص 202.
(5) الطالع السعيد للأدفوي ص 485.

أبي هاشم" وغيرهم[1].

وكثر الشعراء في مصر كثرة هائلة وصدرت مصر في هذا القرن الشعراء إلى المشرق كأبي تمام، [2].

ولا شك أن هذا الجمع من الشعراء قد نظم في شتى موضوعات الشعر الغنائي والقصصي والتعليمي، فلا عجب أن تملأ أسماؤهم اثنتي عشرة كراسة في المكتبة الطولونية[3].

تلك هي حال الشعراء في مصر في القرون الثلاثة الأولى. وأما في القرن الرابع فقد أصبح الشعر في مصر نداً لشعر المشرق في العصر الفاطمي ثم صار النمط الأمثل منذ العصر الأيوبي حيث صارت مصر معقل الإسلام وكل تراثه.

❖❖❖

تراجم لبعض شعراء الدولة الطولونية

(1) الجمل الأكبر:

اسمه الحسين بن عبد السلام وأنه من شعراء الفسطاط في الدولة الطولونية وأنه توفى سنة 258هـ مدح أحمد بن طولون بقصيدة منها:

له يد كم خلّدت من يد ∴ سحابة عمت بأنوائها
وهو لدى الهيجاء ليث إذا ∴ ما ثقلت قام بأعبائها
انظر إلى مصر بسلطانه ∴ ترى الهدى فاض بأرجائها

---

(1) أدبنا في عصر الولاة للدكتور/ محمد كامل حسين ص 191 - 204.
(2) المصدر السابق ص178 - 184.
(3) المصدر نفسه ص 192.

ومدح احمد بن المدير صاحب خراج مصر وكان من عادته أن الشاعر إذا مدحه وارتضى شعره وصله فإذا لم يرتض أمر بحمله إلى المسجد وقال لغلامه لا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثم تطلقه، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين، فجاءه الجمل هذا واستأذنه في الإنشاد فقال له: قد عرفت الشرط قال نعم ثم أنشده:

أردنا في أبي حسن مديحا ∴ كما بالمدح تنتجع الولاة
وقلنا أكرم الثقلين طُراً ∴ ومن كفيه دجله والفرات
ومن كفيه دجله والفرات ∴ جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغني صلاتي ∴ عيالي إنما الشأن الزكاة
فتأمر لي بكسر الصاد منها ∴ فتصبح لي الصلاة هي الصلات

فضحك ابن المدير واستظرفه وقال من أين أخذت هذا؟ قال من قول أبي تمام:

هن الحمام فإن كسرت عيافة ∴ من حائهن فإنهن حِمام

فاستحسن ذلك وأجزل صلته.

وروي له الثعالبي في يتيمة الدهر قوله في طبيب:

إذا سِقام عُراكَ نازله ∴ فاندب أبا جعفر لنازله
يعرف ما يشتكيه صاحبه ∴ كأنما جال في مفاصله

واتفق أن تساقطت النجوم في أيام أحمد بن طولون فراعه ذلك وأحضر من عنده من المنجمين والعلماء وسألهم ما عندهم في ذلك فلم يجيبوا بشيء، فدخل عليه الجمل المذكور وهم في الحديث فأنشده في الحال:

قالوا تساقطت النجـ ∴ وم لحادث فظ عسير

فأجبت عند مقالهم ∴ بجواب محتنك خبير

هذي النجوم الساقطا ∴ ت رجوم أعداء الأمير

فتفاءل ابن طولون واستبشر وأمر له بصلة مرضية وخلعه سنية وقال للجماعة: أف لكم أما فيكم من يحسن مثل هذا؟!![1].

(2) الناشئ الأكبر:

هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ، الأنباري المعروف بابن شرشير كان من الشعراء المجيدين، وهو من طبقة ابن الرومي والبحتري.. وكان نحوياً عروضياً متكلماً. أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ثم خرج منها إلى مصر فأقام بها إلى آخر عمره. كان متبحراً في جملة علوم منها المنطق، وكان بقوة الكلام قد نفض كثيراً من علل النحو وأدخل على قواعد العروضيين شبهاً ومثل له بأمثلة غير الخليل وذلك بحذقه وفطنته. وشعره كثير منه قصيدة في فنون العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت، وقد أكثر في شعره من ذكر جوارح الصيد وآلاته والصيود وما يتعلق بها[2].

ومن شعره في الطرد قوله يصف بازيا:

لما تفرى الليل من أثباجه ∴ وارتاح ضوء الصبح لانبلاجه

غدوت أبغى الصيد في منهاجه ∴ بأقمر أبدع في نتاجه

لبسه الخالق من ديباجه ∴ وشيا أحار الطرف في اندراجه

في نسق منه وفي انعراجه ∴ وزان فوديه إلى حجاجه

يزينه كفته نظم تاجه ∴ منسره ينبئ عن خلاجه

وظفره يخبر عن علاجه ∴ لو استضاء المرء في إدلاجه

---

(1) راجع الأدب العربي في مصر ص 129 - 13.

(2) شذرات الذهب ج214/2.

بعينه كفته عن سراجه

وطردياته على أسلوب طرديات أبي نواس. أليست هذه القطعة شبيهة بقول أبي نواس يصف كلب صيد:

أنعت كلبا أهله في كده ∴ قد سعدت جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده ∴ يظل مولاه له كعبده
يميت أو في صاحب من مهده ∴ إذا غدا جلله ببرده
ذا غرة محجلا بزنده ∴ تلذ منه العين حسن قده
تأخير شدقيه وطول خده ∴ تلقى الظباء عنتاً من طرده
تشرب كأس شدها في شده ∴ يصيدنا عشرين في مُرْقَدّه
يا لك من كلب نسيج وحده

ومن شعر الناشئ في جارية مغنية جميلة:

فديتك لو أنهم أنصفوك ∴ لردوا النواظر عن ناظريك
تديرين أعيننا عن سواك ∴ وهل تنظر العين إلا إليك
وهم جعلوك رقيبا علينا ∴ فمن ذا يكون رقيبا عليك
ألم يقرءوا ويحهم ما يرو ∴ ن من وحي حسنك في وجنتيك

مات الناشئ بمصر سنة 293هـ. والناشئ مسهلة عن الناشئ وهو لقب غلب عليه وشرشير كذلك لقبه وأصله اسم طائر يصل إلى الديار المصرية شتاء من البحر وهو أكبر من الحمام والأنبار مدينة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ واللفظ في الأصل جمع مفرده نبرْ وهو هرى الطعام، وإنما قيل للبلدة أنبار لأن ملوك الأكاسرة كانوا يخزنون بها الحبوب[1].

(1) راجع الأدب العربي في مصر ص13. - 131.

(3) ابن الحداد:

كان مختصاً بالعباس ابن أحمد بن طولون الذي ثار على أبيه، فلما استبد بالسلطان استوزره وقر معه إلى برقة فظفر به أحمد بن طولون حين سيق إليه ابنه أسيراً، فقتل ابن الحداد شر قتله. وكان العباس لما هم بالانخلاع عن طاعة أبيه، مرتبكاً فصنع ابن الحداد قصيدة يحرضه بها ويشجعه، ومنها:

إذ هممت فلا تريعَ وقم وثب ∴ فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب

ولم ينقل منها غير هذا البيت[1].

(4) المريمي:

هو القاسم بن يحيى بن معاوية. ذكر القرطبي أنه من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم، وأنه كان مختصاً بخدمة أبي الجيش خمارويه، ومما خاطبه به من الشعر قوله يستهديه خيمة:

وقد عرضت إليك حويجةٌ لي ∴ بها لطف وليس بها خمول
حواليها السيول ولا عليها ∴ إذا أفضت إلى الخيم السيول
بناء يستهل القطر فيه ∴ ولا يعفو كما تعفو الطلول
إذا حلت من الأطناب خرت ∴ كما خر النزيف أو القتيل[2]

تراجم لبعض شعراء الدولة الإخشيدية

(1) أحمد بن طباطبا:

هو أبو القاسم أحمد بن إسماعيل الرسي بن القاسم بن إبراهيم

(2) المصدر السابق ص 132.
(3) المصدر نفسه ص132.

ابن طباطبا... بن علي بن أبي طالب ﷺ وكان من السرور والنبل وجلالة القدر على ما هو معروف مشهور، وله أدب واسع وشعر في الزهد والغزل مليح. وكانت نقابة الطالبين بمصر إليه.

ومن مليح شعره قوله:

لعمرك إني للثريا لحاسدٌ ∴ وإني على ريب الزمان لواجد

أيبقى جميعاً شملها وهي ستة ∴ وأفقد من أحببته وهو واحد

وقوله:

أأترك الشرب والأنواء دائمة ∴ والطل منها على الأشجار منثور

والغصن يهتز كالنشوان في طرب ∴ والورد في العود مطوي ومنشور

لا والتي تركتني يوم فرقتها ∴ كأنما الرمل في عيني منثور[1]

وقوله:[2]

قالت: لطيف خيال زارني ومضى ∴ صف ما به ولا تنقص ولا تزد

فقال: أبصرته لو مات من ظمأ ∴ وقلت قفْ عن ورود الماء لم يرد

قالت: صدقت. الوفا في الحب عادته ∴ يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

قيل وكان ممن حضر العقد لأبي القاسم أونوجور بن الإخشيد بالفسطاط وأنه قال في ذلك- وقد طمع في الأمر أبو المظفر بن طغج

---

(1) الأدب العربي في مصر ص174 - 175.

(2) قال ابن خلكان ج1 ص4. : "إن صاحب اليتيمة روى هذا الشعر له وإن كان قد نسبه في أول الكتاب لذي القرنين الحمداني0

وغيره وتشعبت الأهواء:

مات إخشيدنا فها نحن في ∴ أمر مريج وكل كف تمد
كلكم طالب يجد وحرص ∴ إنما الشأن أن يوافق جد
يا ولاة الأمور إن لم تنيبوا ∴ لانتظام، فقد تناثر عقد

ومن قوله في الغزل:

بنْتُمْ وخلتم أنني متغيّرٌ ∴ بالبين عند ترحل الأظعان
لا والذي جعل الدموع بمقتلي ∴ أبداً تجود بعارض هتان
ما اخترت تبديل المودة ساعة ∴ بعد الذي هجر الحمى وجفاني
أنا ذاك لا عهدي يغير بالنوى ∴ أبدا ولا وجهي يميل لثان
وإذا وثقت بود من أحببته ∴ فبعاده ودنوه سيان

مات سنة 352 ه على حسب رواية المغرب وسنة 345 ه على حسب رواية ابن خلكان وطباطبا بفتح الطاءين لقب جده إبراهيم وقيل له ذلك لأنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء فقال يوماً لغلامه وقد قال له أجئ بدراعه لا طباطبا يريد قباقباً فبقي عليه لقباً. والرسى نسبته إلى بطن من بطون السادة العلوية[1].

(2) صالح بن مؤنس:

أورده صاحب اليتيمة وأكثر من رواية شعره، وهو يدور على الغزل وذكر الخمر شأن شعراء هذا العصر، وقد خالط شعره هجاء لابن أبي الجوع ويفهم من قول صالح أن مهجوه ناقضه ولكن لم نر في المروي من شعر ابن أبي الجوع شيئاً من هذه المناقضة ولا ندري سبب هذا التهاجي.

(1) الأدب العربي في مصر ص174 - 175.

قال في صالح بن رشدين متغزلاً وإن لم يعنون الثعالبي أقوال صالح في صالح بهذا العنوان لكننا نرى ما قاله في صاحبه غزلاً صرفاً.

قال:

بك يا صالح أرضى ∴ عن زماني حين أسخط
فأدم لي الوصل إني ∴ بك في العالم أُغبط
أنت والرحمن منذ كن ∴ ت على قلبي مسلط
ومصيب أنا في الحب ∴ ومن بعدي يغلط

وقال في الخمر:

سأدمن شرب الراح ما دمت باقيا ∴ وأمدح من شرّابها كل مدمن

فما تكمل الأوقات إلا بقهوة ∴ ولا تحسن الأيام إلا لمحسن

قال في غلام صوفي:

عشقت صوفياً له شاهد ∴ يقيم عذري عند عذالي
قد قصد الله بأحواله ∴ فليته يقصد في حالي

وقال متغزلاً:

بعين الله أنت فإن عيني ∴ إذا ما غبت دامية الجفون
كأنك مهجتي فإذا تدانى ∴ فراقك حم لي ريب المنون

وقال في البنفسج والورد:

بنفسج جاء في حداد ∴ ووردنا في معصفرات
فاشرب على مأتم وعرس ∴ جلا جميعاً عن الصفات

وقال يهجو عبد الله بن أبي الجوع من قصيدة أولها:

هاجيك فيما قاله مادح ∴ فأنت في صفقتك الرابح

وما يقوت الفيل من بقه ∴ أمثالها في فمه طائح
ورب من ترفعه خزية ∴ ميسمها في وجهه لائح
ففخر عبد الله في الناس أن ∴ يقول قد ناقضني صالح
يابن أبي الجوع قدحت امرأ ∴ من فكره يحترق القادح
لقد تعرضت على غرة ∴ قريحة صاحبها قارح
فاركب ذلول الأمر أو صعبه ∴ في فقد جدبك المازح
وعق من أهلك من شئته ∴ فإنما أنت له فاضح
واغد بما تهوى ورح إنني ∴ غاد بما تكرهه رائح
يأيها الصعو الذي لم يزل ∴ يرقص حتى دقه الجارح[1](*)

(3) الحسن بن علي الأسدي:

يلقب بكاتب السر، كتب إليه أحمد بن طباطبا المتقدم بطلب منه كتابه الذي ألفه وسماه الأنيس، فأنفذ إليه الجزء الأول منه وكتب إليه:

قد بعثنا بمؤنس لك في الوحش ∴ ة خل يدعي كتاب الأنيس
فيه ما يشتهي الأديب من العل ∴ م وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معان ∴ ضاحكات إلى وجوه شموس
والنفيس البهى ما زال يهدي ∴ كل حين إلى البهي النفيس

فلما قرأ ابن طباطبا رقعته كتب إليه على ظهرها ارتجالاً:

قد قرأت الكتاب يا خل نفسي ∴ فهو لي مؤنس وأنت الأنيس
وهو تأليف ذي ذكاء وفهم ∴ وهو وقف على العلوم حبيس

(1) الصعو : العصفور الصغير 0
(*) راجع الأدب العربي في مصر ص177- 178.

حدث الحسن بن علي قال: كان أبو الحسن جنبك الإخشيدي من كرماء الناس وكانت بيني وبينه مودة وكنت أغشاه كثيراً للحوائج التي تعرض فاستخدم يوماً بواباً فحجبني غير مرة فكتب إليه:

يـا علـم المكرمـات والسـؤدْ ∴ إليـك أشـكو بوابـك الأسـودْ
يبعـدني كلمـا دنـوت، ومـا ∴ حـق كـريم الـوداد أن يبعـد
فـي كـل يـوم ألقـى بطلعتـه ∴ طـالع نحـس يسـوءني أنكـد
كلـب يهـر الضـيوف إن طرقـوا ∴ فنـاءك الرحـب كـالح اعقـد
أبعده وانفـى الخبيـث عنـك كمـا ∴ ينفى القذى عنه خالص العسجد
أو لا فلـن تسـتطيع تـنظم مـا ∴ عنـك مـن المكرمـات قـد بـدد
ومـا انتفـاع الـورى ببحـر نـدى ∴ تـذاد عنـه العطـاش لا تـورد

فما كان من الحسين إلا أن أرسل إليه الحاجب الأسود مع خادم يسمى بشيراً وأمره أن يضربه بحضرة الأسدي ثلاثين مقرعة ففعل بعد استعفاء من الأسدي وتشديد من أبي الحسين[1].

(4) سعيد قاضي البقر:

كان من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه به لما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل مع علو السمت ومواراة الدولة ومن شعره:

حى على الكأس في الصباح ∴ مطرحـا نصـح كـل لاح
وانتهـب العـيش مـا تـأتي ∴ فأنـت منـه علـى جنـاح
يـا رب، دعنـي بـلا صـلاح ∴ يـا رب ذرنـي بـلا فـلاح
يـدي مـدى الـدهر فـوق دف ∴ وراحتـي تحـت كـأس راح

(1) راجع الأدب العربي في مصر ص179 - 18.

قالوا عنه: أنه كان من شعراء أبي الجيش بن طولون (وكان في آخر عشر التسعين) ثم كان يبيت عند الإخشيد ويحادثه ويسامره[1].

(5) صالح بن رشدين:

قال عنه ابن سعيد المغربي صاحب المغرب[2]، وجدته في تاريخ القرطبي موصوفاً بالكاتب المصري؛ وأنه قال: كتب إلى أبو علي أحمد بن صدقة الكاتب يدعوني سنة 353هـ:

بالله يا صالح قم مسرعا ∴ إلى عقار أدركت تبعا
تساعد الليلة في شربها ∴ وخذ من السكر بها مصرعا
فقد بذلنا لك أرواحنا ∴ لما رأيناك لها موضعا

فجاوبته:

يا سيداً يسمع ما قد دعا ∴ خذني بما ألزمته مسرعا
منادماً ما شئت أعمالها ∴ كأسا ترينا للسنا مطلعا
تشربها حتى ترى الهم لا ∴ يهدي ولا يدري لنا موضعا

وقال عنه في يتيمة الدهر:[3] أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب، صحب المتنبي وروى شعره وكان جيد المعاني، أنشدني له محمد بن عمر الزاهد:

قل لمولاي منعما ∴ لم صرمت المتيما
أنت أعطشتني إليك ∴ وأبكيتني دما
فإذا شئت أن ترى ∴ عاشقا ميتا ظما
فأدر فيّ ناظريك ∴ تجدني توهما

---

(1) المغرب ج4 ص 33.
(2) المغرب ج4/87.
(3) المصدر السابق ج357/1.

وقوله:

أجنـــة نحـــن فيهـــا ∴ أم نحـن فـي المرزجـوش
مـــا بـــين آس ومـــاء ∴ ينســـاب بـــين العـــروش
وقهـــوة ذات حـــس ∴ وطـــاجن ذي نشـــيش
وســـيد رشـــت منـــه ∴ لمـــا تطـــاير ريشـــي

زاره ابن أبي الزلال في منزله فلم يره، فطرح له رقعة من طاق في المنزل وكتب اسمه على الباب، فلما أتى صالح ورأى اسمه على الباب ووجد الرقعة، فقرأها فوجده يعتب فيها عليه انقطاعه عنه، ذهب صالح في الوقت إلى منزل ابن أبي الزلال فلم يجده فكتب اسمه على بابه وترك رقعة فيها:

قـد ومـن خصـني بـودك أذكـى ∴ طول شوقي إليك في القلب نارا
سـرت فيـه تلقـاء داري قصـدا ∴ فـإذا النـور قـد تغشـى الـديارا
فتعجبـت أن أرى الأفـق لـيلا ∴ مـدلهما وجـوف داري نهـارا
وإذا خطـك البـديع علـى البـا ∴ ب يبـث الضـياء والأنـوارا
فتمنيـت أن خـدي نعـلا ∴ أخمصـيك اللـذين نحـوي سـارا
غيـر مسـتنكر لمثلـك أن يـس ∴ تبـق فضـلا وان يفـوت افتخـارا
ثـم أصـبحت أشـتكي عثـر السـك ∴ ر وعزمـي زيارتيـك ابتكـارا
فإذا رقعت تمر بها الريح يمي ∴ نـا طـورا وطـورا يسـارا
فتأملتهـا وكانـت مـن الـلا ∴ تـي تـروق القلـوب والأبصـارا
مـا توهمـت أننـي قبلهـا أقـرأ ∴ خطـأ يزيـل عنـي الخمـارا
قـابلتني منهـا سـهام عتـاب ∴ جعلت درعي الحصين اعتذارا
وأحاشـيك أن تكـون خلـيلا ∴ نـزق الـود للصـديق معـارا

(6) ابن أبي العصام:

جعله صاحب المغرب ابن عصام وجعله صاحب اليتيمة ابن أبي العصام كما مر بك في البيان. وهو أبو هريرة أحمد بن عبد الله من شعراء الإخشيد ومن أصحاب النوادر والإدمان على شرب الخمر، قال يرثي صالح ابن رشدين:

قد أفسد الموت على صالح ∴ كل الذي أصلحه صالح
وانصرف البواب عن بابه ∴ وصاح في مجلسه الصائح
خلوه في دار البلى مفردا ∴ وناح في أوطانه النائح
يا ليت شعري ما الذي قاله ∴ إذ راح في حفرته الرائح
يا أيها الناس ألا فاسمعوا ∴ قولي فإني مشفق ناصح
لا تؤثروا الدنيا على غيرها ∴ ففرق ما بينهما واضح
فالحمد لله وشكر له ∴ كل امرئ عن أهله نازح

ومما قاله في وصف مجالس الشراب[1] :

مجلس لا يرى الإله به غير ∴ مصل بلا وضوء وطهر
سجد للكؤوس من دون تسبي ∴ ح سوى نغمة لعود وزمر
أنا أشهر الأنام في مثل ذا ∴ المجلس لا مجلس لنهى وأمر

***

الحياة الأدبية في العصر الفاطمي

[358هـ - 567هـ]

يعتبر العصر الفاطمي العصر الذهبي حضارةً وأدباً وفكراً حيث

(1) انظر الأدب العربي في مصر ص182 - 183.

ازدهرت الحضارة ازدهاراً عظيماً، وتقدم الفكر، وانتعش الأدب بصورة لا نجد لها مثيلاً في العصور السابقة.

ولقد كان انتعاش الأدب وازدهاره يعود إلى عدة أسباب نذكر منها:

أولاً- ثراء الفاطميين وبذخهم:

عرف الفاطميون بثرائهم وغناهم فلقد كانت هذه الدولة قائمة بالمغرب قبل قدومها إلى مصر وكان لها من المُلك والاتساع اللذين أديا إلى أن تمتلئ خزانتها بالأموال، وكان خلفاؤها يصرفون ببذخ شديد على الدور والقصور والملابس والهدايا والتحف، ومما يدلنا على ثرائهم أن المعز حينما بلغه فتح مصر أخرج من الأموال ما هو حمولة خمسمائة جمل ثم سار بها نحو الديار المصرية[1].

ومما يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي حين قال إن الفاطميين رصّعوا بالجواهر آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً كذلك، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس، وصاغوا من الذهب المرصع تماثيل آدمية وخشبية[2].

ومما يؤيد ذلك أن رشيدة بنت المعز قد خلفت بعد وفاتها ما قيمته ألف وسبعمائة ألف دينار، وأن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت إلى أخيها مرة هدايا منها ثلاثون فرساً من الذهب.

ومبانيهم ومساجدهم وقصورهم الباقية حتى الآن تدلنا إلى أي

---

(1) النجوم الزاهرة ج71/4.
(2) الخطط للمقريزي ج6/2. وما بعدها0

حد كان هؤلاء الخلفاء يعيشون في ترف وثراء وبذخ.

وطبيعي أن يمتد ذلك الثراء أو شيء منه إلى الحاشية ومن انخرط في سلك الفاطميين من الكتاب والأدباء والشعراء فيدفعهم إلى قول الشعر ونظمه والبراعة في الكتابة والإنشاء.

ثانياً امتداد حكم الفاطميين واستقراره:

لقد كان استقرار الأمر للفاطميين وامتداد فترة حكمهم حيث امتدت أكثر من قرنين من الزمان، وقد أدى ذلك لاستقرار اجتماعي ونفسي وازدهار حضاري، كان من شأنه أن يجعل الشعراء ينطلقون ناظمين بلا وجل أو خوف، كما ساعد هذا الاستقرار أيضاً على المرح والانطلاق واللهو والإقبال على الحياة وإنشاد الشعر والتباري به والتنافس بين الشعراء مما كان له أثره الواضح في ازدهار الحياة الأدبية في تلك الفترة.

ثالثاً بلاغة الفاطميين وفصاحتهم وحبهم للأدب:

كان الفاطميون عرباً خلصاً يتميزون بالفصاحة والبلاغة واللسن ومما يدلنا على ذلك أن منهم من كان أديباً وما زالت بطون الكتب تحتفظ بشيء من شعرهم، ولقد قيل عن المعز والعزيز والظاهر أنهم كانوا أدباء يحبون الأدب ويشجعون عليه ولهم ملكاتهم الشعرية ومواهبهم الأدبية، بل إن المعز قد خلف لنا ديواناً شعرياً ضخماً، وقد وصل إلينا هذا الديوان محققاً[1].

وكان الأدباء يلقون من التشجيع والعناية والرعاية ما يفوق

(1) راجع: ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي تقديم الدكتور إبراهيم الدسوقي، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

الوصف فكثروا كثرة قد لا نجد لها نظيراً في عصور مصر الإسلامية السابقة.

واتخذ الفاطميون من الشعر وسيلة دعاية لمذهبهم الشيعي وسلاحاً ضد أعدائهم، ودرعاً يدافعون بها عن دولتهم حيث قرب الفاطميون إليهم الشعراء وأجزلوا لهم العطاء وأجروا عليهم الرواتب السخية ومنحوهم الهبات السنية إلى درجة أنهم كانوا أحياناً يعطون عن القصيدة الواحدة ضيعة بأكملها بل إنهم جعلوا من وظائف الدولة وظيفة مقدم الشعراء[1] التي ليس لها نظير من قبل.

ويروي لنا المقريزي أنه في الاحتفال بيوم عاشوراء كان يوضع في منظرة بركة الحبش طاقات وعليها صور الشعراء، كل شاعر واسمه واسم بلده، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب[2] يضع الخليفة على كل رف صرة فيها خمسون ديناراً، ويدخل كل شاعر فيأخذ صرته.

ويعلق أحد الأساتذة على ذلك قائلاً: "فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متنزهات عامة مما يدل دلالة قاطعة على تمجيدهم لفن الشعر والشعراء"[3].

رابعاً كثرة المواسم والأعياد والاحتفالات:

---

(1) انظر : الخريدة ج1 ص 102.
(2) الخطط ج1 ص 379، والمقصود بالخليفة هنا الآمر بأحكام الله0
(3) في أدب مصر الفاطمية د/ محمد كامل حسين ص 159 ط/ دار الفكر العربي سنة 1970م0

اعتنى الفاطميون عناية بالغة بالاحتفالات والأعياد، وكثرت في عهدهم المواسم الدينية وغير الدينية إلى درجة أن الإنسان يخيل إليه حينما يقرأ تاريخ الفاطميين أن أيامهم كلها قد تحولت أعياداً.

لقد بالغ الفاطميون في هذه الاحتفالات واستحدثوا أعياداً كثيرة مثل مولد النبي، ومولد علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة، والحسن والحسين. واستحدثوا مواسم أخرى مثل موسم رأس السنة، ويوم عاشوراء، وعيد الغدير، هذا بالإضافة إلى أعياد النصارى مثل يوم الغطاس، ويوم الميلاد، وعيد النيروز التي شاركوا فيها إخوانهم المسيحيين واحتفوا بها أيما احتفاء.

وكان الفاطميون- في هذه الأعياد- يمدون الأسمطة ويخلعون الخلع ويهبون الهبات، وكان الشعراء في هذه الاحتفالات والأعياد يتبارون بأشعارهم ويتنافسون على إرضاء الخليفة والحاشية ويحاولون إجادة شعرهم ليعجبوا عُلية القوم فتكثر خلعهم وتزداد صرر أموالهم، فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب ازدهار الشعر في ذلك العصر.

لقد توافرت الأسباب ووجدت الدواعي الكثيرة التي أدت إلى ازدهار الأدب ونهضته آنذاك.

ولكن كان أهم ما يهم الفاطميين هو نشر مذهبهم الشيعي بكل سبيل وكان الشعر إحدى هذه السبل الهامة؛ لذلك قرب الفاطميون إليهم الشعراء وأجزلوا لهم العطاء وشجعوهم على قول الشعر لأنهم يعلمون أن الشعر لغة العاطفة والوجدان وأقرب إليهما من القول العادي، وأكثر تأثيراً في النفوس، وكان حتماً على الشعراء الذين

عاشوا في ظل الدولة الفاطمية أن يصطبغ شعرهم بصبغة عقائدية شيعية وأن يتلون بلون مذهبي فاطمي.

لقد جاء الفاطميون إلى مصر بمذهب ديني مختلف عما كان عليه جل المصريين الذين كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ولذلك أراد المصريون أن يعرفوا موقف الدولة الجديدة من مذهبهم فخرج وفد مصري لاستقبال جوهر الصقلي، فكتب لهم جوهر كتاب أمان.

ومن الطرق التي استخدمها الفاطميون في سبيل نشر مذهبهم ما هو إداري وما هو اجتماعي وما هو علمي وأدبي، أما الناحية الإدارية: فقد عملوا على إحلال الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب المهمة مثل منصب: داعي الدعاة وقاضي القضاة، وكان من أثر هذه السياسة أن اعتنق كثير من المصريين المذهب الشيعي.

وفي الناحية الاجتماعية اتخذوا سياسة الترف وإغداق النعم والعطايا على أفراد الشعب تودداً وتحبباً حتى يستطيعوا استدراجهم لمذهبهم وراحوا يحتفلون بالمواسم والأعياد وحرصوا على المشاركة فيها.

ومن الناحية العلمية فقد برعوا براعة عظيمة في ذلك، حيث استغلوا الجوامع القديمة مثل جامع ابن طولون لتكون مدارس يعلمون الناس مذهبهم، كما أقاموا جوامع جديدة مثل الأزهر الذي كان جامعة ومركزاً أساسياً في نشر العقيدة الشيعية، وأنشأوا دار الحكمة التي التحق بها كثير من العلماء وألحقوا بها مكتبة كبيرة.

وأما من الناحية الأدبية فقد عنوا عناية عظيمة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب لنشر المذهب الشيعي.

نماذج من الشعراء والكتاب :

(1) ابن قَلاقس[1] :

قال من قصيدة يمدح بها ياسر بن بلال:

سافِر إذا ما شِئْتِ قدْرا ∴ سارَ الهِلالُ فصار بدْرا

والماء يكسِبُ ما جَرى ∴ طِيبًا، ويخْبثُ ما استقرّا

وبنُقْلةِ الدُّرَر النقـ ∴ ـيّة بُدِّلت بالبَحْر نَحْرا

وَصْلاً إذا امتلأتْ يَدا ∴ ك فإن هُما خَلتَا فَهجْرا[2]

فالبدرُ أنفَقَ نورَه ∴ لما بَدا ثمَّ اسْتَسَرّا

حَركاتِ عيسكَ ما أَرَدْ ∴ تَ مِهادَ عَيْشك أن تَقِرا[3]

فالمهدُ أَسكنُ للصبـ ∴ ـيّ بحيث جاء به ومَرَّا

إما تَرَيْني شاحبَ أُل ∴ وجناتِ قد أُلْبِستُ طِمْرا

فوقائع الأيّام تُخْـ ∴ ـرِجَ أَهلَها شُعْثًا وغُبرا

مدَّتْ إليَّ الأربعو ∴ ن يدًا، وقد قهقرتُ عشرا

ما قلتُ: أُفٍّ! فإنها ∴ شَرَرٌ بأُفَ يعود جَمْرا

وكفاكَ أني إن نظر ∴ تُ لها نظرتُ النجم ظُهْرًا[4]

كان الشبابُ الغضُّ ليلا ∴ فاستنار الشيبُ فجرا

ولئن قتلتُ صروفَه ∴ وقتلتُه جَادًا وخُبْرا

---

(1) هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله الشهير بابن قلاقس اللخمي الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، كان شاعراً مجيداً رحالاً مداحاً دخل المغرب وصقلية، ومدح أمراءهما كما مدح أعيان دولة الفاطميين. ثم ذهب إلى اليمن ومدح ملوكه. ومات بعيذاب. وكان مرسى السفن المقلعة من مصر على بحر القلزم (الأحمر) إلى الحجاز سنة 565هـ.

(2) وصلاً إذا : أي وصل وصلا.

(3) حركات : أي اعمل حركة لعيسك إذ أردت قراراً لعيشك أي أن الغنى بالسعى وإنما يسكن الصبى في مهده إذا اهتز وجاء به إلى ناحية ومرّ إلى أخرى.

(4) أي إن نظرت إلى الشعرات البيض في لمتي اسودت الدنيا في عيني وكأني أنظر النجوم في الظهر مأخوذ من المثل العامي " يريه النجوم في الظهر ".

غاض الوفاءُ، وفاض ما ∴ ءُ الغَـدْرِ أنهـارًا وغُـدْرا
فـانظر بعينـك هـل تـرى ∴ عُرفـا ولـيس تـراه نُكْـرا؟
خُلُـقٌ جَـرَى مِـن آدَمٍ ∴ فـي نَسْـلِهِ، وهَلُـمَّ جَـرَا
ومُروِّعـي بـالبحر يَحْـ ∴ سـبُ أنَّنـي أرتـاعُ بحـرا
أو مـا دَرَى أنـي بِتَسْـ ∴ هيـل المصَـاعِبِ منـه أدرَى

وقال مرتجلا:

ولمَّا بَدَا رَكْبُ السحاب تَسوقُه ∴ حُدَاةُ الرياح الهوْجِ وهي تُزَمْجِر
رَكَنْتُ لبيْبٍ استجنَ من الحَيَا ∴ به، وإذا غيْث مِنَ السقف يقطُر
فلا فَرْقَ ما بين السحاب وبينه ∴ سِوى أن ذَا صافٍ، وذاك مُكدَّر(*)

(2) ابن قَادُوس [1]

ولابن قادوس فَصلٌ من منشورٍ مما كان يُنشَر على الناس بوفاء النيل في الدولة الفاطمية. وهو:

النِّعَمُ وإن كانتْ شاملةٌ للأُمم، فإنها مُتفاضِلةُ الأَقدارِ والقِيَم؛ فأولاها بشُكرٍ تُشكَرُ في الآفاق أعلامُه، واعتدادٍ تُحكمُ بادراك الغاياتِ أحكامُه، نعمةٌ يشتَرِك في النفْع بها العبادُ، وتبدو بركتُها على الناطق والصامت والجماد، وتلك النعمةُ النيلُ المصريُّ[2] الذي تَبْرُزُ به الأرضُ[3] الجُرُزُ في أحسن الملابس، وتظهرُ حلَل الرياض على القيعان والبَسابس[4]، وتُرَى الكنوزُ ظاهرةً للعِيان، مُتَبَرِّجةً بالجواهر واللُّجَيْن والعِقيان. فسبحان

(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج2/ 38. : 381.
(1) هو القاضي كافي الكفاءة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قادوس من رؤساء كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية في أيام الآمر والحافظ الفاطميين.
(2) تمييز عن نيل الفرات وهو خليج منه0
(3) الأرض الجرز: التي أكل نباتها ولم يصبها مطر؛ فلم تنبت ثانية أو هي الأرض التي لا تنبت.
(4) البسابس: القفار الخالية.

من جعَله سببا لانتشار المَوات، وتعالى من ضاعَف به ضُروبَ البَرَكات، ووفَّرَ به موادَّ الأَرْزاقِ والأقوات، (وهذا الأمر) صادر إلى الأمير، وقد منَّ اللّه جَلَّ وعلاَ بوفاءِ النيل المبارك، وخُلِعَ على القاضي فلان بن أبي الرَّدَّاد في يوم كذا وكذا وطافَ بالخِلَع والتشريفات، والمواهب المضاعفات، بالقاهرة المحروسة ومصر، على جاري عادته، وقديم سيرته. ونودي على الماء بوفائه ستة عشر ذراعا وأصبعا من سبعة عشر ذراعا، واسْتَبْشَر بالنِّعْمة بذلك الخلائق، وواصلوا بالشكر مواصلةً لا تستوقفهُم عنها العوائق. وبدا من مسرات الأمم وابتهاجهم ما يضمَن لهم من اللّه المَزيد، ويُنيلهم المَنَالَ السعيد، ويقضي لهم بالمآل الحميد، وموصل (هذا الأمر) إليك فلان، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامَه وإعزازَه، وإجمالَ تلَقيه وأفضالَه، إلى ما جرت به عادةُ مثله من رجاء، وتنويه واحتفاء، وإكرام واعتناءً، ليعود شاكراً. فأعلم هذا واعمل به إن شاء اللّه تعالى(*).

(3) ابن الصيرفيّ: [1]

ولابن الصَّيْرَفيّ أحد كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية فصل من منشور مما كان ينشر على الناس بالبشَارة بركوب الخليفة إلى صلاة عيد الفِطْر:

وكتابُ أَمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا بعد أن وفَّى الصيامَ حَقَّه، وحاز أَجرَ من جعل اللّه على خزائنه

(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج179/1 : 18.

(1) هو القاضي الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجد المعروف بابن الصيرفي. كان من رؤساء الكتاب في الدولة الفاطمية زمن الآمر وهو صاحب ديوان الرسائل المطبوع بمصر 0

رِزْقَه، وبعد أن أفْطَر بحضرته الأولياءُ من آله وأُسْرَته، والمُقدَّمُون من رُؤَسَاء دولته، والمُتَميِّزُون من أوليائه وشِيَعَتِه. وكان من نُباء هذا اليوم أنّ أَميرَ المُؤْمِنِينَ لما ارتُقِبَ بروزُه من قُصورِه، وتجلىَّ فأَشرقتْ الأرضُ بنورِه، تَوَجّه إلى المُصَلّى، قاضيا لسُنَّةِ العيد؛ فكانت نِعْمةُ ظهورِه بالنظر (للحاضر) وبالخير للبعيد. واستقلّ ركابُه بالعساكر المنصورة التي أبدت منظراً مُعْجِبا، وجعلتْ أديمَ الأرض بالخيل والرَّجْل محتجبًا، وذَخَرَتْ الانتقام مِمن شَقَّ العَصَا، وتجاوزتْ في الكثرة عددَ الرمل والحَصى، وزَيَنَتْ الفضاءَ بهيئتها، وروَّعت الأعداءَ بهيْبتها، وَجَمَعَتْ بين الطاعة وشدَّةِ الباس، وادَّرَعَتْ من التقوى أَمْنَعَ جُنَّةٍ وأحصَنَ لِباس. ولم يَزلْ سائرا في السكينة والوقار، ناظراً للدُّنيا بعين الاحتقار، والثَّرى بالجباه والشفاهِ مُصَافِحٌ مَلْثوم، فهما مَوْسومانِ به وهو بهما موسوم؛ إلى أن وصل إلى مقرّ الصلاة، ومحل المناجاة؛ فصلىَّ أتَّم صَلاة وأَكملَها، وأداها أحسنَ تأديةٍ وأفضَلها، وأخلص في التكبير والتهليل إخلاصَ من لم يُفِتْ أَمْرًا ويخشى الله ويتّقِيه؛ ونَصَح في إرشاده ووعْظِه، وأعرَبَ ببديع معناه وفصيح لَفْظِه، وعاد إلى مَثْوى كرامته، وفَلَكِ إمامته، محمودَ المَقام، مشمولاً بالتوفيق في النقض والإبرام. أعلمَكَ أميرَ المؤمنين ذلك لتُذيعَه فيمن قِبَلَك، وتشكُر الله على النعمة الشاملة لهم ولك. فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى. وكتب في اليوم المذكور(*).

❖❖❖

(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج18/1. : 181.